عائشة البصري

الحياة من دوني

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

الحياة من دوني

رواية

البصري، عائشة .

الحياة من دوني: رواية/عائشة البصري.- ط1 .-

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2018.

264ص؛ 20سم .

تدمك : 978 - 977 - 293 - 752 - 3

1- القصص العربية .

أ-العنوان . 813

رقم الإيداع : 2018/ 11873

©

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون : 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: مايو 2018م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الدار العربية للكتاب، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار .

مكتبة الدار العربية للكتاب

إهـــــداء

إلى ضحايا اغتصاب الحروب .

«من فظائع الحرب، أننا ننسى تحييد جسد المرأة »

كاتب فرنسي

«أحلم باليوم الذي يأتي فيه طفل، ويسأل أمه: كيف كانت الحرب؟ »

شاعرة أمريكية

«كل الحروب هي حروب أهلية، لأن جميع البشر إخوة »

شاعر فرنسي

الحياة من دوني

الدار البيضاء.. شتاء 2014

كنت أشتغل على كتاب حول مقابر العالم. مصير الإنسان بعد الموت بات يقلقني. وكنت قد حسمت مصير الروح – بعد نقاش طويل مع نفسي – مقتنعةً بأنّ الروح كالكلمة التي نتفوه بها، تندثر في الهواء ليلتقطها جسد آخر. هكذا بكل بساطة. والحقيقة أنني كنت أفتقد قوة المعرفة وتماسك العقل للبحث في السماء، فاكتفيت بالبحث عما يُطمر تحت الأرض .

الفكرة بدأت بالاتفاق مع ناشر مهووس مثلي بجمالية المقابر، لنشر كتاب جميل، يتضمن صورًا لمقابر باريس مع قصائد في مديح الموت . لنقل إنها حالة إبداعية ملحّة لشَعْرَنة الموت. لكن الفكرة حادت عن هدفها الجمالي المضيء إلى بحث في الزوايا المظلمة لما بعد الموت .

كلما أُعلن عن آخر إحصاء لساكنة العالم، ازداد قلقي على مصير الجثث. بت أحمل على عاتقي مشكلة عالمية قادمة، كارثة أخطر من ثقب الأوزون في غلاف الجوّ، وأفظع من جفاف منابع الماء على الكرة الأرضية .

تخيلت عدة سيناريوهات مرعبة، كأن يستيقظ شخص ما ويجد أن والدته قد فارقت الحياة، يقبلها على الجبين، ويرمي الجثة في حاوية الأزبال المركونة في

ناصية الشارع. أو يحتفظ بها في مجمّد البيت ريثما يصل دورها في الدفن، لأن ثمن القبر الواحد أصبح أغلى من شقة وسط مدينة باريس. لم أقلق على أصحاب الثروات لأن طريقة كيميائية جديدة ومكلفة للاحتفاظ بموتاهم ظهرت مؤخرا في أوروبا. شركة إسبانية تحول رماد الجثة إلى ماسة. يعلقها القريب على صدره: أخ، أخت، زوج، زوجة، ابن ...

الإحراق وارد، لكنه غير مقبول في معظم الديانات .

في لحظة ما، تشعب البحث إلى كيفية الدفن وطقوسه . فاكتشفت الكثير من الطرق الغريبة لدفن الجثة. بعض الشعوب كانت تعلق موتاها على أغصان الأشجار بعد تكفينها بلحاء الشجر كمقابر معلقة. وعند بعض الشعوب الأخرى، يتم تعليق التوابيت بأجراف جبلية أو يضعونها في الكهوف. في فترة غير بعيدة، في منطقة ما في الصين، كانوا يرمون الرضع في خلاء مخصص كمقبرة مكشوفة .

أما متى فُصل بين عالم الأموات وعالم الأحياء فظل غير محدد التاريخ، لأن دفن الأموات في أحواش المنازل ظل قائما إلى تاريخ قريب .

زرت العديد من المقابر خلال أسفاري. كلما دخلت مدينة سألت عن مقبرتها. مرة، في مدينة كايِّين الفرنسية، سألت مرافقتي عن مقبرة قديمة، فأشارت تحت رجلي

«أنت تمشين فوقها». فقد دمرت المدينة بكاملها على ساكنيها خلال الحرب العالمية الثانية .

هكذا، بتُّ ألقَّب بالخُفاش ويتطير مني أقربائي .

في هذه الفترة، وفي خضم هذا الهاجس المقلق، قادتني قدماي يوما إلى درب عمَر، أضخم مُركَّب تجاري يتوسط مدينة الدار البيضاء. وهو ما أصبح اليوم يسمى بسوق الشِّيئوا. أعرف المركّب منذ أكثر من ثلاثين سنة، كنت أشتري حاجياتي منه حين كنت أسكن المدينة .

دهشتي كانت كبيرة. البنايات والشوارع والمحلات التجارية والأزقة لم تتغير، لكن الباعة تغيروا تماما كما البضاعة. أصحاب المحلات كلهم صينيون وصينيات، باستثناء بعض مساعديهم من المغاربة الوسطاء أو الحمّالين .

أول سؤال تبادر إلى ذهني، وأنا أرى هذه العدد الكبير من الجالية الصينية وسرعة تزايدها في المغرب، هو : ماذا يفعلون بموتاهم؟ خصوصا الطوائف غير المسلمة، أين تحرق جثث موتاها؟

بلهجة مغربية دعتني بائعة صينية لزيارة متجرها. أطلعتني على السلع التي تتنوع بين أدوات منزلية، ومنسوجات حريرية، وخِفاف مطرزة، وأطقم خزفية ...

لاحظت البائعة عدم اهتمامي بالمعروض. دخلتُ إلى عمق المتجر وعادت بجرة من الخزف الصيني، بلون أحمر قرمزي، مزينة برسوم ذهبية لزهرة اللوتس :

- انظري أستاذة، إنها جرة قديمة من الخزف الرفيع، الرسوم بماء ذهب حقيقي، تعود للثلاثينيات من القرن الماضي. صنعها خزَّافٌ أعمى مشهور في منطقة جْيَانْغْسُو شرق الصين. أثناء الغزو الياباني، أخذها بائع تحف إلى الفيتنام، حيث اشترتها سيدة فرنسية متزوجة بإيراني .

هُرِّبت الجرة من إيران إلى العراق خلال الحرب العراقية الإيرانية. ووصلتْ إلى باريس بين التحف المنهوبة من متحف بغداد أثناء الغزو الأمريكي للعراق. ثم بيعت خطأ كقطعة أثرية. وانتهت إلى المغرب. واكبت الجرة أربع حروب وبقيت سالمة، ولم تخدش خدشا واحدا. إنها تحفة نادرة .

حكاية البائعة الصينية كانت مغرية .

أخذت الجرة بين يدي، فتحت الغطاء المصنوع من الفلين السميك، فزكمتني رائحة رماد نفاذة .

- هل هي لحفظ رماد الأموات؟ سألتُ .

نفت البائعة بشدة مخافة أن أكون من الناس الذين يتطيرون من كل مَا لَهُ صلة بالموت .

لم أصدقها. ففي بَحْر اشتغالي على كتابي حول المقابر، كنت قد زرت أحد المعابد البوذية في تايلاندا، ورأيت جرارا بنفس الشكل مصطفة في مقبرة المعبد، الأكيد أنها ليست بنفس الجودة لكنها تشبهها تماما. خبرة اكتسبتها في هذا المجال . سألت البائعة الشابة :

- أليس من المفروض أن يكون الغطاء من الخزف المبطن بالفلين .

ارتبكت البائعة ووسّعت عينَيْها المشقوقتَيْن :

- طبعا. ربما انفصلت الطبقة الخزفية عن الفلين . لا أظن أنها انكسرت. سأبحث عنها بين الكراكيب في العلية أو في البيت. لو رجعتِ مساء غد تجدين الغطاء كاملا .

أكدتُ لها :

- سأعود مساء بعد غد فأنا لا أسكن المدينة، إذا وفرتِ لي الغطاء سآخذ الجرة بالثمن الذي تطلبينه، لقد أعجبتني .

الحقيقة أنني قررت شراءها بأي ثمن، لعلها تلهمني ببعض الأفكار عن طريقة مغايرة للتخلص من جثث الموتى في كتابي عن المقابر .

عدت في الموعد. لكن، بدل البائعة الصينية، وجدت شابا مغربيا في المحل. وصفت له الجرة وأخبرته باتفاقي مع الشابة الصينية صاحبة المحل . نَدَّتْ عن الشاب ابتسامة غامضة :

- إنها زوجتي. لقد ذهبت لإحضار الأولاد من المدرسة، لكن لديّ فكرة عن الموضوع. ربما الغطاء الخزفي ظل في الصندوق بين الخردوات التي استعادتْها من البائع المتجول. سأبحث عنه في العلية، إذا كنت محظوظة سأجده سالما .

عقَّبْتُ :

- ربما ضاع الغطاء في سفر الجرة الكثير بين البلدان وتنقلها من يد لأخرى .

أجاب الشاب :

- لا، لم تُنقل هذه الجرة منذ سنوات إلا حين ماتت صاحبتها .

فطنت إلى أن الزوجة تلاعبت بتاريخ مسار الجرة .

صَمَتُّ وتركته يحكي :

- أنت تعرفين ما تفعله المخدرات بهذا الجيل، حفيد صاحِبةِ هذه الأغراض القديمة باع الحقيبة بكلّ محتوياتها، بما فيها منسوجات حريرية ثمينة، لبائع

جوال مقابل ألف درهم. تصوري، أستاذة، لم يحترم ذكرى الجدة ولا قيمة ما باع. زوجتي، والتي هي أخته، تتبعت آثار البائع الجوال واستعادت الأغراض بضعف الثمن. أقنعتها أنه مادامت هذه الأغراض في البيت القديم سيعود الشاب ليسرقها مرة أخرى. فعَرَضتْها للبيع على مضض. كلما باعت قطعة حزنت عليها .

قدم لي كرسيّا: اجلسي سيدتي .

صعد إلى العلية وعاد بصندوق من الكارتون وضعه أمامي :

- ابحثي بنفسك، فأنا لا أذكر حجم الجرة بالضبط. وإذا أعجبك شيء آخر مِمَّا في الصندوق سأبيعه لك بثمن مناسب، فأنت الآن زبونتنا .

وجدت الجرة كاملة بغطائها الخزفي المبطن بالفلين، وسط بكرات الحرير، مقص صغير، إبر، مشغولات يدوية، مطرزات بعضها لم يكتمل، مبخرة بوذية لحرق البخور، غراموفون نحاسي، مجسمات لمراكب وسفن بأحجام مختلفة، بعضها فقد الأشرعة الورقية، أسطوانات صينية قديمة شاحبة الألوان، إحداها لأغنية زهرة الياسمين، أغنية صينية مشهورة، واثنتين معزوفتين على آلة القوتْشينْ .

بين كتب فرنسية قديمة، من سلسلة الروايات البوليسية «سيري نوار » ، التي تصدرها دار النشر غاليمار منذ الخمسينيات، كُتَيِّب صغير بعنوان «قوتْشينْ معزوفة حرب منسية » ، تحت العنوان، وبخط أصغر، «شهادة حرب، تحرير كاترين لي ». على الغلاف صورة لصبيتين صينيتين متعانقتين، تتكئان على بقايا جدار. يبدو جليا أن الغلاف مركب من صورة حقيقية الثُقطت في استوديو تصوير، ومن أنقاض مدينة بعد حرب ما .

انتبه الشاب لاهتمامي بالكتاب :

- إنه كتاب لجدة زوجتي . لم تكتبه، إنما حررته صحفية فرنسية استنادا لما حكته لها الجدة. سمعت أن الصحفية ابنة عائلة فيتنامية، سكنت فترة مع الجدة بفرنسا في تجمعات اللاجئين الوافدين من الفيتنام، بعد الحرب الهندوصينية. الصحفية جاءت إلى المغرب لتجمع شهادات عن تلك المرحلة .

حك رأسه محاولا التذكر قبل أن يستدرك :

- زوجتي هي التي تعرف التفاصيل. أنا لا أعرف الكثير عن تلك الجدة الغامضة والغريبة. امرأة كثيرة الارتياب والخوف. تعيش وحيدة خلف شبابيك من حديد. لم تكن تتكلم إلا للضرورة، متوجسة من الجميع . رفضت حتى الكلام - أول الأمر - مع الصحفية، حتى أرتها أذنها المقطوعة التي فقدتها وهي رضيعة في الفيتنام.

لتذكّرها بأنها، فعلا، تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تقيم معها في نفس العنبر، تمشط شعرها وتلاعبها وترعاها في غياب الأم التي كانت تذهب للعمل في الحقول .

كانت الجدة جارتنا لسنوات في درب الطالْيَانْ. الكبار كانوا ينادونها بالفيتنامية. ونحـن الصغار - المعجبين بأفلام الفنون الحربية لبروس لي وجاكي شان - كنا نناديها بالشِّينوِيّا. بالنسبة لنا كل من له عينان مشقوقتان مثلهما هو صيني .

استطرد الشاب :

- الأغرب في قصة هذه المرأة، هو موتها منتحرة، وهي في الرابعة والتسعين من العمر، بمنقُوع عشبة مسمومة. وهو ما لا يحدث إلا نادرا في مثل هذه السن. ألا ترين، أستاذة، غرابة في هذه النهاية؟

ودون أن ينتظر الإجابة :

- لو انتظرتِ مجيء زوجتي ستفيدك أكثر. قد تعود بعد ساعة. مدرسة الأولاد بعيدة. أنت تعرفين الدار البيضاء التي أصبحت مثل دولة صغيرة، غول مفتوح الفم والمسافات والمواصلات و ...

استأذنت من الشاب :

- عليّ أن أعود إلى مدينتي، النهار قصير، ستظلم بعد قليل، وعليّ أن ألحق بقطار السادسة. بكم الكل؟

قال :

- وإذا كنت تريدين الكتب الأخرى فهي لك .

قاطعته :

أريد، فقط، الجرة والكتيِّب والأسطوانات .

استيقظ طمع البائع :

- لو تعرفين ارتباط زوجتي بكل هذا.. والله لو كانت هنا لطلبت أكثر. أعطيني ألفي درهم في المجموع، والله يرَبْحَكْ بِهُمْ .

كان معه حقّ، لو جاءت زوجته، كانت ستنصب عليّ بحكاية أخرى، وتبيعني الأغراض بضعف الثمن .

سلمتُ له النقود قبل أن تعود الزوجة، رغم أنني كنت أتوق إلى سؤالها: لمن بقايا الرماد العالق في الجرة؟

عدت إلى البيت أفرغت ما في العلبة الكرتونية. نَفَضْتُ الغبار عن الأسطوانات. وضعتها قرب التلفزيون. فقيمتها تاريخية فقط، لأنه من المستبعد أن تكون ما تزال صالحة .

وضعت الكتيِّب على الكومودا الجانبية لسريري، لأبدأ قراءته في المساء، بدافع نفس استغراب البائع الشاب وتساؤُله :

لماذا تنتحر عجوز في الرابعة والتسعين؟

تأملتُ الجرة. خمَّنت أنها ستوحي لي بفصل كامل عن طقوس حرق الموتى وطرق حفظ الرماد. وسأعنونه «بمقابر السيراميك ». ابتهجتُ للفكرة. لا بأس أن نشتري فصلا من كتاب بألفي درهم .

لمَّعت الجرة بمنديل ناعم تحاشيا للخدوش .

قبل أن أضعها على المصطبة الرخامية لمدفأة الصالون، ولأتأكد من أن الصفقة كانت رابحة، نقرتُ عليها بأصابعي لأختبر الرنين، وهي تقنية تعلمتها من والدتي لأقيس مدى رهافتها وجودتها، ومدى نقاء الطين الذي صنعت منه، فأعادت إليّ النقرات صدى صوت امرأة ...

نانجينغ.. صيف 1996

أنا الآن في جرة من الخزف الصيني الرفيع، فوق رفٍّ رخامي لمدفأة تتصدر غرفة المعيشة لبيت صغير . مكان ملائم لمراقبة ومتابعة كل ما يجري في العائلة وفي العالم. وتأمل الحياة وهي تمضي من دوني .

نحن الأمواتُ نُصاب بفضول الحياة فور تخطينا عتبة الموت . لكن، حين يتذكر الموتى فهذا يعني أنهم تعافوا من الحياة .

لست الميتة الوحيدة في البيت، صور أموات العائلة تجاورني، تزينها إطارات من اللَّك المذهب، انتقيتها بنفسي يوم اشتريت الجرة وأنا أرتب موتي. طلبتُ من خزَّاف معروف أن يصنع لي جرة بلون قرمزي، ويزينها برسوم بماء الذهب لأزهار اللوتس المباركة. وأكدت عليه أن يترك الطين تحت السماء، ثلاثَ ليال مقمرة. فأبدع لي تحفة نادرة .

نحن من بين الشعوب القليلة التي تحتفل بالموت ولا تنسى أسلافها. بل لموتانا تقديس وعيد خاص. تظل أرواحهم تحوم حولنا تحرسنا من مطبات الحياة .

لم أشعر بالوحدة أبدا في موتي. صورتا أمي وحماتي الباهتتان تحيطان بي .

مت منذ أزيد من عشر سنوات، ومازلت حاضرة بين عائلتي. أحيا أفراحهم وأحزانهم، وأحل - بشكل من الأشكال - حتى مشاكلهم التي لا تنتهي. يحدث أن يشير زوجي للجرة في أحاديثه «قالت جِينْ مَيْ»، «فعلت جِينْ مَيْ» أو ليؤكد حادثًا ما «قد كانت جِينْ مَيْ حاضرة »...

أتابع الحياة من دوني، من خلال كلامهم ومن خلال صمتهم كذلك .

مات الكثيرون، وولد القليل. لم يعرف هذا البيت إلا أربع ولادات بعد موتي. ابنتي رزقت بطفلة بعد إجهاضات متكررة. وابني فاز بثلاثة أولاد قبل سَنّ سياسة الطفل الواحد .

تتبعتُ أخبار العالم وتحوّلاته من خلال الأصوات القادمة من المذياع والتلفاز. تغيّرت خرائط وبلدان. رحل جيل بكامله من الزعماء والرؤساء. تغيرت مجتمعات .

رغم أن أحفادي لم يروني، فهم يعرفونني منذ أن بدأوا لمس الأشياء ونبتت لهم أجنحة الفضول، من كثرة ما سمعوا الجملة نفْسَها تتكرر على مسامعهم: «احذر أن تُسقط الجرة فهي تحتوي على رماد جدتك». مع الوقت اعتاد أطفال العائلة وهم يتعاركون أو يلعبون الكرة تحذير بعضهم: «احذر أن تصيب الجدة» أو «احذر أن تسقط الجدة» أو «ماما، يونغ يلعب بالجدة ».

كان البيت ضاجًا، ومع السنوات أصبح أقل حياة. لم أعد أسمع أصوات الكثير من أفراد العائلة .

وَضْع الجرة في غرفة المعيشة، كان المكان الأنسب لتذَكُّري. هي الغرفة الأكثر رواجا وحميمية في بيت يتألف من ثلاث غرف ومطبخ وحمام. كل القرارات اتُّخذت هنا. كل الأحداث العائلية جرت هنا. الأولاد كما الأحفاد، خطوا خطواتهم الأولى، ونطقوا كلماتهم الأولى في هذه الغرفة .

غرفة مريحة مفتوحة على المطبخ، لا يفصل بينهما غير ستار من الورق الشفاف، تزينه رسوم لأشجار الكرز بأزهارها البيضاء والوردية . يتسلل إليها الضوء عبر نافذة تطل على الشارع، وأخرى تطل على الحديقة المشتركة بين سكان البناية. ضوء هذه النافذة تتحكم فيه شجرة الجوافة حسب الفصول. كلما غطتها الأوراق الخضراء في الربيع حجبت قسطا من الضوء عن الغرفة . وكلما تساقطت في الخريف سمحت لضوءٍ أكثر. في كل الحالات لم يكن الضوء مشكلة مطروحة لدينا، نحن شعب نحب الضوء الخافت القريب إلى الظل .

الشقة في الطابق الأرضي من عمارة تقع في المنطقة الجنوبية لمدينة نانجينغ. بنيت العمارة بعد الحرب، لأن منطقة الجنوب دمرت عن آخرها وسويت المنازل بالأرض. ليست عمارة بالشكل الذي تبنى به الآن كبنايات شاهقة تحجب السماء عن البشر. تتألف من

ثلاثة طوابق فقط، في كل طابق بيت مستقل. وقت بنائها كان السكان أقل وكانت الأرض أوسع لبناء بيوت مستقلة .

عندما استلمتُ البيت، أنا وزوجي، في بداية الخمسينيات، تطلبت مني غرفة المعيشة اهتماما وجهدا أكبر من باقي الغرف. رغم سياسة التقشف التي بدأت تتوسع، استغنيت عن الألحفة التقليدية، واشتريتُ كنباتٍ ثلاثًا تصلح للجلوس وللنوم أيضا، إذا زارنا الأقارب من خارج المدينة. عائلتنا الكبيرة كانت تعتبر أن نوم الضيف في فندق إهانة له وعدم احترام للأهل .

في بداية زواجنا كنا نستقبل الكثير من الضيوف أغلبهم من عائلة زوجي التي أصبحت عائلتي بعد أن قتل والدي، وتوفيت والدتي، واختفى أخي يونغ، ورحلت أختي قوتْشينْ. فرحتي كانت كبيرة كلما زارنا أحد أقاربي، من قرية جسر تشو لانْغْ مسقط رأسي، ممن لم تقتلهم الحرب، من أبناء وبنات أخوالي وخالاتي الذين شاركتهم طفولتي الخضراء، بعد أن انقطعت الزيارات بيننا سنوات بسبب الحرب، وكذلك بسبب الملابسات التي كانت سببا لرحيل أسرتي عن القرية .

الدار البيضاء.. صيف 2006

ماذا يعرف العالم عن الحروب الخلفية، حروب ساحتها جسد المرأة؟ عن رقيق الجنس في زمن الحرب؟

ماذا يعرف المؤرخون عن تلك الحروب الموازية؟ هل أحصوا بدقة قتيلات تلك الحروب، قتيلات طمرت جثثهن كموتى لا ينتمون لأحد؟ هل يعرفون كم امرأة اغتصبت، وكم امرأة قتلت على أسرَّة مجهولة؟ وكم امرأة جُنت أو انتحرت من الذل؟ هل يعرف العالم أن ما مورس من تعذيب في الأسرة يفوق ما مورس في المعتقلات السرية؟

إحصائيات خسائر الحروب تكاد تكون دقيقة في أرشيفات الدول، عدد القتلى، عدد الجرحى، عدد المفقودين. أما عدد المغتصبات فيظل بعيدا عن الحقيقة. في هذه المساحة المظلمة بالضبط، ليست هناك دقة بالعدد. لأن هؤلاء الضحايا هنّ، في منطق الحرب، سبايا وغنائم لا يدخلن في خانة البطولة ولا الشهادة، لأن القتيلات لُذن بالصمت، فالاغتصاب مذلة للمغتصبة وفحولة للمغتصب. جسد المرأة يظل خطيئة حتى ولو كان تحت حد السيف .

بالاصطلاح الحربي، هي حروب ارتدادية وحوادث أُسِرَّة ...

لا أحد يعرف ما وقع خلف الأبواب المغلقة، لأن الحقيقة دفنت تحت الأسرّة العفنة .

أُلِّفَ الكثيرُ عن هزائم الحروب، عن الانتصارات والبطولات. وغُضَّ الطَّرْف عن كيف عاشها أناس بسطاء لم يحملوا سلاحا ولم يشاركوا في حرب. عن مدى الدمار الذي لحق بجسد المرأة، الرحم الذي يطرح الحياة على البسيطة .

فهل ستعتذر الإنسانية، يوما ما، لنساء وفتيات تم بيعهن، في ظروف حرب وفقر، عبر وسطاء يتاجرون في لحوم البشر، بمباركة الأهل، من خلال إعلانات ملتبسة، كانت تطلقها وسائل إعلام رسمية لتشجيع الصغيرات على الالتحاق بالجيوش المتقاتلة للترفيه عنها، والخضوع لنزوات المرضى النفسيين الجنسية التي تصل إلى حد القتل؟

هل سيقام هناك، في يوم ما، في بلدان تدعي التحضر، نصب تذكاري لقبر جندية مجهولة؟ نصب يقف أمامه إمبراطور ياباني وينحني اعتذارا لنساء صينيات، كوريات، لاووسيات، فلبينيات.. قبر يقف أمامه رئيس تركي ويضع إكليل ورد اعتذارا للأرمينيات. قبر يقف أمامه رئيس أمريكي بباقة ورد ليعتذر لفيتناميات، عراقيات، أفغانيات، فلسطينيات...؟ قبر يقف أمامه رئيس روسي ليعتذر لأفغانيات، بولنديات، فنلنديات...؟

اعتذار على جريمة الحرب الأقدم، والأقل إدانة .

حكايتي هي حكاية ملايين النساء اللواتي عشن الحرب .

لا أريد هنا أن أقدم أرقاما، أو أحدد باتهامي أجناسا وشعوبا. لم يَبْقَ من تلك الفترة سوى الألم كدليل على جرائم ارتكبت، والألم ليس ماديا لتبنى عليه قضية ومحاكمة. لا يهمني التاريخ، الأحداث مدونة في الكتب والأرشيفات. والحروب نتفرج عليها كل يوم .

حربنا السابقة، لا تختلف كثيرا عن الحروب الآنية ولا الآتية إلا في تطور السلاح وزيادة عدد القتلى. رحى الحرب ما زالت تدور. كلما فرغت صحون الأقوياء، يرتمون كالكلاب على صحون الضعفاء .

أريد هنا، أن أتحدث عن تلك الآهة الخافتة التي تطلقها امرأة مجروحة. جروح الروح هي التي لم تدون.
وروحي صدى لصوت إنساني مكلوم، لذلك فشهادتي لن تكون محايدة بعيدة عن مشاعري الشخصية. كما أنها لن تبتعد كثيرا عن مأساة الوطن. كانت هناك حرب، وطن وجسد في خندق واحد .

روحي، وهي فتيّةٌ، عجنت بمياه اليانغتسي الممزوجة بالدم .

لا أقصد أن أشير بإصْبَع اتهام إلى قتلة معينين. فالحرب سوداء في جميع اللغات. أنا مجرد سطر من كتاب أسود تكتبه البشرية منذ الأزل. مجرد شاهدة مُسِنَّة لا تزال تقتات بجثث الحرب. تتوصل، مرة كل ثلاثة أشهر، بحوالة من باريس، كأرملة عسكري فرنسي .

كل ما أرومه من حكايتي هنا، هو الحديث عن حروبي الداخلية التي أججتها حرب عالمية كبرى، وأن تعرف النساء ما حدث لبنات جنسهن حتى لا يتكرر، وأن يعرف الناس قسوة الحرب، لعل معرفتهم بأهوال الحرب تجعلهم يتشبثون بالسلام .

ليس للحرب وجهة نظر .

صمتي أربعين سنة، لا يعني أنه لم تكن لدي رغبة قوية في الكلام، لكن زوجي أمرني بالصمت يوم وطئت قدماي المغرب. الصمت الذي فرضه عليَّ وعلى نفسه. كان كل منا يجر وراءه تاريخا أسود. الكلام يجر الكلام، وهو كباقي المحاربين، كان يريد أن ينسى. فالحقيقة ليست مبتغى كل الناس، بعض الأشخاص يبتعدون عنها مسافات كي لا تؤلمهم. أما أنا فكنت أريد أن يظل الجرح مفتوحا كي لا أنسى .

الآن مات كل من كان ستُحرجه حكايتي أو تؤلمه، كزوجي محمد، وأختي جْيِنْ مَيْ، ووالديّ، وأخي يُونُغْ .

اسمي قوتْشينْ، امرأة من شرق الصين، عشت حربين، وبقدرة الحب أخطأتني حرب ثالثة .

قوتْشينْ اسم آلة موسيقية عريقة وراقية لا يعزف عليها سوى علية القوم من الأدباء والشعراء والنبلاء. لا يمسها العازف إلا بعد الاستحمام وإشعال البخور. للعزف عليها وترويضها تلزم أنامل ساحر. أوتارها صنعت من أرواح الملائكة، وأصواتها عذبة ورقيقة كخرير الماء. ليست هناك آلة موسيقية أكثر تعبيرا عن مشاعر البشر من حزن وفرح مثل القوتْشينْ .

قوتْشينْ اسم جميل، رغم أن الجميع هنا في الدار البيضاء، مرفئي الأخير، ينادونني بالصينية أو الفيتنامية. وحده زوجي ظل يناديني باسمي مع تحريف بسيط في مخارج الحروف .

للاسم تأثير غريب على شخصية حامله. خالتي هي من اختارت لي هذا الاسم، كانت امرأة مغرمة بالرقص والغناء، لها صوت ملائكي. لكنها كانت تغني فقط في جلسات التطريز بين النساء. في نزهاتنا الجبلية، كانت تتطوع للغناء بصوت عال تموجه مع ترقيق أو ترخيم الصوت، بحسب اتجاه الريح وتمايل الجسد. أنا كذلك كنت أعشق الرقص والغناء. لدي أذن موسيقية تلتقط النوتات وأحفظها بسرعة . ربما كنت سأصبح مغنية

أعراس لو لم تقم الحرب. منذ أن وعيت مدلولَ اسمي وأنا صبية، لم تطأ أحلامي الأرض، وعشت محلقة بالأوهام في السماء .

عشت عمرا طويلا، أكثر مما أردت، عمرًا كافيًا لدفن كل أحبتي وأصدقائي. فمن مفارقات حياتي، أن الموت الذي كان يحوم حولي كثيرا في صباي وشبابي، لم يقترب مني ولا مرة بعد الثلاثين. لم أصب بمرض ولم أتلقَّ حقنة من طبيب في حياتي. شاب شعر رأسي، لكن بشرتي ظلت مشدودة حتى سن الستين. شخت وأصبحت كومة صغيرة من العظام، لكنها ظلت عظامًا لينة ومطيعة. جذوري القروية كانت صلبة كروحي. ورثت جينات جداتي من أمي اللواتي عمرن طويلا .

لم أتوقف عن الحركة والأشغال اليدوية. حين وصلت إلى مدينة الدار البيضاء، لم أعتمد على المواصلات لأرسخ في ذاكرتي معالم مدينة شاسعة ومجهولة بالنسبة لي. مشكل اللغة كان عائقا لأسأل المارة عن الاتجاه، فاعتمدت على ذاكرتي القوية وعلى رجلي. حتى وقت قريب كنت أقطع مسافة كيلومترات بين درب الطالْيانْ حيث أسكن ودرب عُمَرْ، وبينه وبين قيسارية الحفاري في درب السلطان. واظبت على نفس الإيقاع، لأطل على الألفية الثالثة، وأتحدى موتا هَدَّدَني سنوات الشباب. لن يكون موتي بقصور من جسدي. ستلفظني الحياة، فقط، لأنني أطلت الإقامة فيها. أتمنى

فقط، ألا يرتبط تاريخ موتي، كما ولادتي، بحرب عالمية أخرى .

الجبل الأحمر .. 1938

غادرنا قريتنا جسر تشو لانْغ، التي تقع على ضفاف نهر تشينهواي أحد روافد نهر اليانغتسي، في الليل، قاصدين مدينة نانْجينْغْ أقرب مدينة .

لم يكن رحيلنا طوعا، كان هروبا من العار أكثر منه هروبا من ويلات الحرب. العار الذي لحق بالعائلة، وألسنة الناس التي حاصرتنا بعد أن شاع خبر هروب أحد الضباط - من أقرباء والدي - من المعركة أمام الجيش الياباني، تاركا كتيبة دفاع صينية بلا قائد. خشي والدي أن تنتقل الوشوشات والتلميحات إلى اتهامات بالخيانة، ومنها إلى التصفية الجسدية والتتريك. رغم أننا كنا أسرة فلاحين، لم نر هذا الضابط ولا مرة واحدة في حياتنا، كانت قرابة بعيدة جدا من جهة جدي لأبي . لكن فوضى الحرب لا تحتاج لإقناع وحجج .

لم يكن للجيش الياباني القدرة على نزول الشوارع والاشتباك مع المقاتلين، ففضل أن يمطر القرى بوابل من القنابل، قبل أن يتقدم بمصفحات لا يغادرها العساكر إلا

مرغمين. كانت الحرائق في كل مكان. مررنا بقرى أحرقت تماما. لم نعد نميز بين جثث البشر والحيوانات التي تفحمت. ليلة الهروب صادفنا جماعات من المقاتلين. مقاتلين بلا أسلحة وبلا أحذية حتى. البعض منهم كان يسير نحو المعركة بقطع ثوب ملفوفة حول الأقدام .

مشينا طويلا بحذر بين شعاب ملتوية، كل يحمل متاعه على ظهره. عبرنا جسرا معلقا بين جبلين قبل أن نصل إلى مرفأ صغير موارب، حيث تدبر والدي مركب صيد لسفرنا .

تركنا خلفنا كل شيء، البيت وما فضل عن الحرب من مواشٍ، وقطعة الأرض موردنا الوحيد، قطعة لم تكن تستحق منا ندما كبيرا. فبعد أربع سنوات من رحيلنا، انتزعت الأراضي من الملاكين الكبار وقامت الدولة بإعادة توزيعها على الفلاحين، قبل أن تعود لتنتزعها وتضمها إلى كومونات شعبية، تتشارك محصولها أكثر من خمسين عائلة .

ونحن نصعد القارب، كنت الوحيدة التي أجهشت بالبكاء. لم أستوعب الأمر وسألت أبي: متى سنعود إلى البيت؟ وضع والدي يده الثقيلة والخشنة على رأسي مطمئنا :

- البيت هو نحن مجتمعين. حيثما تكون العائلة يكون البيت .

لم يلمس أبي رأسي بذلك الحنو منذ كنت صغيرة، كأنه جمع فيها حنان كل تلك السنوات .

أنزلونا، أنا وأمي وأختي قوتْشينْ، إلى قعر المركب احتياطا. وحُشرنا بين الصناديق الفارغة إلا من رائحة الأسماك النتنة. استمرت القذائف تتساقط على جوانب القارب قبل أن يبتلعها النهر. واستمررتُ أنا في البكاء والنحيب. بعد مسافة سمعنا اقتراب قارب آخر. دق والدي على السقف دقات خفيفة لينبهنا إلى خطر قادم ونلتزم الصمت .

أصعب ما في الحرب هو أن تسكت بكاء طفل كي لا يكشفك العدو. أسوأ من القصف، هو حين وضعت أمي رأسي بين فخذيها، وضغطت على فمي بشدة لتخنق النشيج والانتحاب في حلقي كي
لا يسمعنا أحد في بهيم الليل. والأسوأ منهما أنني فكرت، تلك اللحظة، في أنه من الممكن أن تقتلني أمي خنقا إذا شكلت عليهم خطرا. فلا شيء أصبح أسهل من القتل في هذه الحرب الوسخة، حيث الموت والقتل والجثث في كل مكان .

بدا ذلك الليل لا نهاية له. ساد المركب صمت ثقيل، كل منا تَحَصَّنَ في دواخله. في تلك اللحظة تمنيت أن

أدخل إلى رأس أختي قوتشين لأعرف ما تفكر فيه. أكيد أنها بدأت في التخطيط لمشاريعها الجهنمية. لم تكن حزينة ولا خائفة من خطورة الرحلة، كانت عيناها تلمعان في عتمة القعر ببريق المغامرة والإثارة. وكنت أنا أتخيل أسوأ المصائب، كغرق المركب أو هجوم مسلحين، وأرتجف خوفًا من بداية جديدة .

بعد إبحار ليلة كاملة، توقفنا عند معبد، لنختبئ ونصلي طلبا للحياة، ونستجدي حماية الأسلاف ومباركتهم لخطواتنا الجديدة .

تلك كانت أول مرة أغادر فيها القرية، وأول مرة أرى فيها راهبات المعبد حليقات الرأس بصورة أبشع مما حكت عنهن نساء القرية. كانت تلك الحكايات رادعا أخلاقيا للبنات، وكوابيس سكنت أحلام طفولتي .

طالما سمعت عن فلانة نذرت حياتها للمعبد، أو إحدى الفتيات أرغمت على الالتحاق بسانغا المعبد الجبلي لأنها ارتكبت سلوكا مشينا .

والدتي كانت أكثرنا سخاء في العطايا وحرقا للبخور، وأصدقنا صلاة وابتهالا. فقد اعتادت الحج إلى هذا المعبد مرة كل ربيع، لتصلي من أجل الإنجاب. حين أنجبت توأمًا أنثى واظبت على العودة من أجل إنجاب ذكر .

بعد كل زيارة تعود محملة بالهدايا، مجسمات وصور بوذا، حلوى القلقاس، وفوانيس اللوتس الورقية لنا نحن الإناث، نعلقها في السقف لتزين البيت. قبل أن يسرقها أخي يونغ ويجعلها تطفو في مياه القناة. أما يونغ فقد كانت تخبئ له خذروفا أو اثنين في جيوبها .

استأنفنا السفر. نمت أنا وأختي لنستيقظ على صوت والدي يحثنا على مغادرة القارب. لم نصل إلى المدينة مقصدنا الأول بل نزلنا سفح الجبل الأحمر .

المسافة بين القرية والمدينة قطعناها في سنة، بين تقدم وتقهقر. متنقلين بين القرى والمداشر بحثا عن ركن آمن .

لكل قرية دخلناها قصصها الغريبة والمريعة. من بين القصص الغريبة التي انتشرت بين الناس، أن قرية فرغت من الذكور، إما هربوا أو التحقوا بالجبهة، ولم يبق إلا النساء والأولاد تحت سن العاشرة. سقط طيار ياباني بين الأحراش. كان جريحا كسرت رجلاه. قيدته امرأة وحيدة في بيت معزول إلى حين عودة الرجال. مع الوقت، استأنست المرأة بالجندي، أحبته. بعد شهور، علمت أن المقاتلين يحومون حول القرية بحثا عن الجندي المفقود .. حتما سيقطعون رأس الياباني الوسيم، بشعره الأسود الكثيف ولونه القمحي وعينيه السوداوين. فوضعت له الزرنيخ في حساء العشاء. في الصباح قبلته، ثم دفنته في حوش البيت، كي لا تظل

وحيدة . سيعود المقاتلون كل إلى زوجته، وسيبقى قبر الجندي وَنيسَها الوحيد. يحدث في الحرب أن تعشق عدوك. تكفي نظرة واحدة إلى عينيه ليولد تآلف إنساني، ورغبة في الحب، حب خارج السياق، في لحظة وجيزة بين عدوين .

كانت سنة 1938 أصعب السنوات على عائلتي، سنة تشرد بين القرى، وخوف وجوع ومرض .

وصل بنا الجوع في بعض الأحيان إلى درجة الهلوسة . نتسابق إلى مطمورة تخزين الحبوب الفارغة. نطل بأعناقنا فتتلألأ حبات من الأرز في الظلمة. المحظوظ هو من تلتقط يده حبة أرز يضعها في فمه ويلوكها في الفراغ الكبير لجوفه. أو نلهث وسط الحقول المحروقة بحثا عن كوز ذرة لنضعه في حلة كبيرة لتطعيم الماء المُغَلَّى الذي يكون عشاءنا الوحيد. لم تتردد جارتنا في أكل الكلبة العرجاء وهو ما كان محرما. في التعاليم البوذية لا يؤكل الحيوان المريض . حتى النهر حجب عطاياه. من شدة البرد تجمد الماء، ولم يبق منفذ واحد للصيد. كل النباتات والحشرات أصبحت قابلة للأكل، ما تسبب في التسمم الغذائي وموت الكثيرين. وبالإضافة لاختفاء الأطباء، الذين التحق معظمهم بالمقاتلين للتطبيب أو بساحات القتال، اختفى الرهبان، ولم يَبْقَ من يقيم طقوس الجنازة على موتى الجوع .

لم أعرف في حياتي سنة قهر شبيهة بهذه إلا سنة 1963 ، فترة الركود الاقتصادي للبلد .

قرية جسر تْشُو لانْغْ.. خريف 1934

أنا واحدة من توأم أنثى . ولدت أنا وجُينْ مَيْ في قرية جسر تْشو لانْغْ. قرية تقع قرب مدينة نانجينغ أكبر مدن مقاطعة جيانغسو. القرية تحمل اسم جسرها العتيق الذي يخاصر نهر تشينهواي أحد روافد نهر اليانغتسي العظيم. الجسر يحمل بدوره اسم جنرال شجاع عاش في فترة الممالك الثلاث. منطقة غنية بمظاهر الطبيعة المتنوعة من جبال وأودية عميقة ومنعطفات نهرية .

منذ الولادة ارتبط مصيرنا بالحروب، فيوم مولدنا 11 من فبراير، وضعت جيوش العالم أسلحتها، وأعلن عن نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولدنا تحت برج النمر، برج يتميز مواليده بالحيويّة والحماس والاندفاع، ورفض الاستسلام مهما كان الأمر، اجتماعيون يسعون دَؤمًا لعلاقات جديدة كثيرة، لكنهم لا يثقون بالآخرين، مفرطون في الشغف والحيويّة والتفاؤل. من سلبيات مواليد هذا البرج عدم القدرة على الصبر، والعصيان، والعصبيّة، والعبث في كلّ شيء، والتهور . الكثير من هذه الصفات ميزتني وحدي. ولم تأخذ أختي جُينْ مَيْ منها إلا القليل .

في الحرب لم نعد نعتمد على الأبراج لتصريف حياتنا أو قراءة المستقبل، لأن الطائرات التي تقصفنا من فوق،

شوشت على أبراجنا في السماء .

أنا وأختي جْيِنْ مَيْ تقاسمنا نفس الماء ونفس الأحلام في الرحم.. لكنني كنت الأقوى منذ الولادة، ببنية ضعيفة لكن بروح فائضة وطموحة. بخلاف جْيِنْ مَيْ السمينة والهادئة بإذعان وروح باردة. كانت أمي تتهمني بأنني سرقت من قوى أختي الروحية ونحن في الرحم . لم نكن توأمًا حقيقيا، كنا مختلفتين حتى في الشكل. جْيِنْ مَيْ لها ملامح والدي كأنفه الغليظ ووجهه الدائري. شفتاها مكتنزتان، وبشرتها بيضاء صافية، عيناها بنيتان، ووجنتاها مستديرتان مثل حبتي خوخ. أنا اكتسبت ملامح جدتي لأمي، بشرتها القمحية، عينيها السوداوين الناطقتين بالذكاء، عينين تتكلمان قبل الشفاه، كي لا تفصحا عن الحقيقة، بجاذبية الغموض وسحره. شعر أسود ناعم، رهافة الجلد، شفتان رقيقتان. أكثر ما كان يميزني عن جْيِنْ مَيْ هي نحافتي مقابل امتلاء جسدها، وطولي الذي يزيد على طولها عشرة سنتيمترات .

مختلفتان في كل شيء، وتجمعنا وحمة واحدة حمراء على الجانب الأيسر من أسفل الخصر. أمي توحَّمتْ على قطعة بطيخ أحمر في فصل الشتاء .

الحقيقة أن جْيِنْ مَيْ، كانت ضعيفة وهشة كقشة . هزة نفسية بسيطة كانت تجعلها تصاب بالحمى وتلازم

الفراش. فكنت أحرص على حمايتها من متاعب الحياة، من الآخرين، وحتى من نفسي .

كانت تتبعني كظلي، تنتظر دائما حركة مني لتبدأ أي شيء، حتى في الأكل. تأكل بشراهة لكن شهيتها لمباهج الحياة الأخرى كانت ضعيفة. دائما خائفة ومترددة. ونحن صغيرتان كانت توقظني في الليل لأرافقها إلى الحمام، لا تستطيع إخراج رأسها من تحت اللحاف في الظلمة .

أعترف بأنني استغللت شخصيتها الضعيفة والخائفة لأجل تحقيق أهدافي الصغيرة. كانت تصدقني بعماء، لا تناقشني ولا ترتاب في نواياي إلا نادرا .

في صغرنا كنت أروي لها حكايات عن الأميرات الجميلات اللواتي كن يتعرضن للاختطاف من قبل جنيات الجبل. وأدعي أنني أنا الوحيدة في القرية التي صاحبت جنية منهن. الغاية من قصتي ألا تتجرأ على صعود الجبل وحدها وتضيع .

وضعنا الاجتماعي عرف تحولات كثيرة، مع تحولات البلد المتسارعة منذ بداية القرن العشرين. لم يكن ينقصنا الكثير، كما لم يكن لنا ترف الأغنياء. لذلك لم نخضع لزيجات مرتبة، ولم تُربط أقدامنا في الصغر كخالاتي وعماتي. وهي عملية تدخل ضمن الترف القاتل، قد تنتهي بتشوه أو تعفن أو موت الطفلة. عملية

الربط تتطلب إمكانيات مادية ومكوث الفتاة في البيت دون عمل لفترة قد تتعدى سنتين. بإمكانياتنا المتواضعة كانت العائلة في حاجة إلى من يحمل دلاء الماء ويجمع الحطب ويساعد الأم في المطبخ .

قبل الحرب بفترة، بدأت الأفكار السياسية الجديدة بتغيير التقاليد والمعتقدات. حين جاءت الحرب قضت على ما تبقى من هوياتنا. تهنا في الأرض بلا هوية محددة لأن الأسبقية كانت للبقاء على قيد الحياة .

إنجاب أمي لبنتين لم يشفع لها عند والدي، ولم يمنعه من زياراته المتكررة للمدينة واختفائه لأيام. بل استغل عادة انفصال الزوجين بعد الولادة مائة يوم واختفى مدة أطول، حتى أنه لم يحضر الاحتفال البئيس لإتمامنا الشهر الأول .

الابن الذكر هو من كان يحدد مكانة الزوجة، حتى ولو كانت الأسرة فقيرة ولا تملك ما تورثه للأبناء، تبقى ولادة ذكر في العائلة استمرارا للأسلاف .

أهل القرية كانوا يعرفون سبَبَ اختفاء والدي في المدينة، قصة نساء. أمي وحدها لا تعرف ذلك، أو بالأحرى لا تريد أن تعرف. وتركت هامشا كبيرا للشك، بل كانت تضع في جيبه، وهو يغادر إلى المدينة، بعض النقود ونتفا من خيوط الحرير ليشتري لنا حريرا بنفس الألوان. وبطريقة ما، اقتنعت بأن أخي الكبير يونغ، من

رحمها. رغم أنه كان ثمرة علاقة ربطت والدي بامرأة مجهولة من المدينة .

حين اختفى أخي يونغ، وشاع خبر موته في القرية، ارتدت والدتي ثوب الحداد الأبيض، وألبستنا ملابس من الخيش. المؤكد، أنه لو كانت هناك جنازة، كانت سترافق الرفات إلى المقبرة على ركبتيها كما يفعل أقرباء الدم .

لم يتوقف والدي عن زياراته الغامضة للمدينة إلا حين اندلعت الحرب. لم نعد نتوفر على خيوط الحرير للتطريز. توقفنا عن ذلك كما توقفت والدتي عن تطريز ملاءة سرير زرقاء لعرس جْيِنْ مَيْ التي كانت مرشحة للزواج قبلي لامتلاء جسدها ونضجها المبكر. استغرق تطريز الملاءة ستة شهور. ظلت تلك الملاءة في علبة من القش. اعتقدت أنها أحرقت في بيت القرية، لكنها ظهرت في نانجينغ. بعد وفاة أمي وجدتها جْيِنْ مَيْ محشوة في مخدتها .

كان العالم يدور كرحى تطحن الزرع ولحم البشر، وأنا كنت أدور حول نفسي، أبحث عن مكان آمن أثبت فيه قدمي الصغيرتين الموحلتين المتورمتين من شدة البرد والمتشققتين من خطى الطريق، فغالبا ما كنت أمشي حافية القدمين إلى المدرسة لأحافظ على نعلي.
المظاهر كانت هي الأهم بالنسبة لي. المهم هو أن أصل إلى الفصل وأنا أنتعل نعلين نظيفين، لأثير إعجاب زملائي .

كان حرصي على حذائي لا يوازيه إلا حرصي على قنينة الشاي وقطعة خبز الذرة - قوتي اليومي - تدسهما أمي في حقيبتي قبل مغادرة البيت .

أغلب التلاميذ كانوا يأتون إلى المدرسة حفاة، لأسباب بعيدة عن أسبابي .

رغبة في التميز عن الآخرين، كنت أتمرد وأرفض الاصطفاف مع زملائي في الساحة ليرشّوا مبيد الحشرات بنافوخ صغير على رؤوسنا وبين طيات ثيابنا. في ذلك اليوم يصبح التركيز في الدرس مستحيلا. يستيقظ القمل ويبدأ الهرش في الأجساد الصغيرة. لا تهدأ الحشرات إلا بعد ساعات. عائلتي لم تكن تعاني من هذا الوباء، الذي انتشر سنوات الحرب، لأن والدتي، وبنصيحة من الجارة، كانت تضيف الرماد إلى مسحوق الغسيل .

كانت المدرسة بديلا مميزا - لنا نحن البنات - عن شغل البيت ومَلْءِ جرار الماء، والتطريز الذي لا ينتهي . ننهي شغل قطعة فتوضع في أيدينا قطع أخرى. كنت دائمة التأفف من أعمال الخياطة والتطريز، عكس جْيِنْ مَيْ التي كانت مبدعة، بذوق رفيع في اختيار الألوان وتفهم في أنواع الحرير والأقمشة، تعلمت ذلك من جدتي لأبي. كنت أجد متعة في مشاغبتها وتشتيت تركيزها بافتعال مناوشات وخصومات حول المقص أو الإبر أو خيوط

الحرير. أنتهز الفرصة لألهيها عمدا حتى لا تحظى بمديح أمي والجارات مقارنة بعملي .

لكنني كنت أعرف أن حبها لي سيثنيها عن الوشاية بمشاغباتي داخل البيت وأشياء أخرى أفظع خارجه .

جُيِنْ مَيْ كانت طيبة إلى حد السذاجة. تبتلع كل ما يقوله الكبار . قوية الإيمان بالمقدسات والأسلاف. أنا لم أكن أذهب إلى المعبد إلا مضطرة. كنت أفضل جولاتي على النهر، لأنني أدركت في وقت مبكر أن الآلهة من اختراع جدتي، لا أحد في السماء، وتأكد لي ذلك خلال الحرب. لو كان هناك إله يحرسنا في السماء لمنع تساقط القنابل على بيوتنا وأجسادنا الضعيفة .

كنت أتمتع بدهاء كبير، منذ صغري، ورغبة قوية في معرفة وتعلم كل ما هو غريب، ككلمات لغة أخرى، ألتقطها من العابرين للقرية ومن الجنود. أدون كل كلمة أسمعها. بالحدس، أدركت أن هذه الكلمات الغريبة هي مفتاح عالم آخر جميل وبعيد عن القرية. كان بي فضول لا يرتوي وحاسة سمع حادة تلتقط كل ما يدور بين أفراد العائلة، خصوصا ما يُهمس به في المطبخ بين النساء. كلما رأيت جارتنا وصديقة والدتي المفضلة عائشة، تدخل غرفة التطريز، أنزوي في ركن قصي من الغرفة، أتربص بما يخرج من الأفواه من أسرار .

جارتنا عائشة، كاتمة أسرار والدتي، لم تكن من قوميتنا، كانت من قومية هُوِي. علمتنا عادات وأكلات غريبة. سأعرف، فيما بعد وأنا في المغرب، أن العادات والقيم التي كانت الجارة تعلمنا إياها هي عادات إسلامية .

لم أعرف ملابسات زواجها ببوذي، أو كيف جاء بها زوجها من ضواحي مدينة يِنْشُوان بمنطقة نينغشيا على ضفاف النهر الأصفر. كانت دائمة الافتخار بأصولها التي تعود إلى ملوك شيشيا وبطفولتها على ضفاف نهر ينبع من السماء. لم تنْدَمِجْ مع نساء القرية، صادقت والدتي فقط .

اختلاف الجارة عائشة عن نساء القرية جعلها قدوة بالنسبة لي في الأناقة والنظافة، وترتيب البيت، وتحضير الطعام، وفي النصائح التي كانت تسديها لوالدتي، كالاعتناء بمظهرها والتزين لزوجها. ويجمعنا معا النفور من زيارة المعابد. في بيت تلك الجارة استيقظ فيّ إحساس الأنثى، من رائحة عطر يفوح من غرفة النوم اكتشفت عالم المرأة، من ملمس المنامة الحمراء الحريرية المزينة بطبقات من الدانتيل المخرم، المعلقة على المشجب بكامل أنوثتها، من حذاء الساتان الأخضر المطرز، صف اللحف الملونة، عقد اليشم على الطاولة الجانبية.. من تلك التفاصيل الصغيرة والدقيقة، خرجت المرأة من جسد الطفلة .

غرفة نوم الجارة بسيطة، لا تختلف عن غرف بيوت الحي، غير أن السرير الحجري، كان يحظى بعناية خاصة، بأجمل المفارش ووسادات الريش الناعمة. أتحين دائما الفرصة لأدخل غرفة الجارة السحرية، وأطفو في حلم امرأة. أمرر يدي الصغيرة على الكومودا الخشبية المصقولة باللَّك، أتتبع الرسم الدقيق للطاووس، أرغب في فتح الأدراج لأكشف سر الأنوثة المخفي. يفرد الطاووس جناحيه ليحلق خارج الغرفة.. أسمع الخطى الراقصة للجارة تقترب من الباب، أتعثر في مغزل الصوف.. أغادر غرفة امرأة تمنيت أن أكونها .

أستغرب الآن تركيبة روحي المعقدة، كيف قلقتُ – لحظة القصف - على منامة حمراء، في بيت يحترق عن آخره، وبداخله الجار المسكين؟

لكنني لم أكن أستسيغ نصائح الجارة لوالدتي بالإذعان للزوج. الجارة لم تكن ترى عيبا في أن يُدخل الرجل إلى سريره امرأة أخرى. نصحتْ والدتي بتجاهل أسفار والدي إلى المدينة، والسكوت عن أصل أخي يونغ واحتضانه كابن لها .

من أحاديث الجارة عرفت الكثير من أسرار عائلات الحي، وأسرار عائلتي التي لم تعرفها جُيِنْ مَيْ. فهمت الإشارات والغمز بين النسوة. عرفت الكثير وأغلقت فمي. لم أحك لأختي سوى القليل التافه والسطحي، فقد كانت حساسة وسريعة التأثر، ولا تكتم سرا. فمها

مفتوح دائما، إما للأكل أو لإفشاء الأسرار. في تصرفاتها بَلَهٌ يغيظني .

كانت الجارة عائشة امرأة جميلة جدا. أنجبت ثلاث بنات آية في الجمال. فكن، هي والبنات، من أوائل ضحايا الاغتصاب حين دخل الجيش الياباني إلى القرية. اغتصبت أمام زوجها، فألقت بجسدها المدنس في النهر. واختفت البنات الثلاث وسط فوضى الحرب .

قرية جسر ثْشو لانْغْ.. خريف 1934

لم نكن فقراء، كنا من الملاكين الصغار، ووالدي يملك قطعة من الأرض ورثها عن أجداده. ووالدتي تخبئ في صندوقها ثلاث قطع من الحرير الفاخر، مخازننا مملوءة، ونار مطبخنا تشعل كل يوم، قبل أن تأتي الحرب وتساوي بين الجميع. وكان بيتنا البعيد عن المركز في اتجاه الطرف الشرقي من القرية، يتكون من طابقين بنيا بالطين وتبن الأرز ودعامات الخشب، وسلَّمان، سلم يؤدي إلى الطابق العلوي وسلم يصعد للسطح المخصص لتجفيف المحصول: ذرة، فلفل، سمسم، صويا، وكل ما تجود به الأرض حسب الفصول .

الطابق الأرضي مخصص للطبخ وتناول الطعام واجتماع العائلة، ومطمورة لتخزين الحبوب. الطابق العلوي لغرف النوم الثلاث. غرفة أتشاركها مع أختي قوتْشينْ، وواحدة لوالدي، والثالثة المغلقة في أغلب الأوقات تخص أخي الكبير يونغ .

الباحة الخلفية، المواجهة للجبل، كانت مسيجة كحظيرة للمواشي. بينما الباحة الأمامية، حيث الباب الرئيسي في اتجاه النهر، فكانت مجمعا للعائلة والجيران في أيام الحر .

لم نكن عائلة هادئة كباقي عائلات القرية. المشاكل والتوترات كانت كنار تحت رماد، تنتظر ريحا صغيرة لتأجيجها .

اللحظات السعيدة في طفولتي كانت قليلة، لا أذكر منها إلا لحظتين. يوم زيارة الفرقة المسرحية ويوم مهرجان القمر .

حين تكون المطمورة قد امتلأت بتموين السنة، ونضجت فاكهة البوملي، تبدأ احتفالات مهرجان القمر. تزين البيوت والأزقة بالفوانيس الملونة وتحرق البخور، تُخرج النساء أجمل ما لديهن من سراويل حريرية، وأقمصة التويد المطرزة. وتزين ضفيرات الصبايا بالشرائط الحريرية. في ذلك اليوم، لم نكن نُمنع، نحن البنات، من تتبع التنين وهو يرقص بين الأزقة. في المساء، يمد حصير في باحة البيت، حيث يتجمع الأهل والأصدقاء لتأمل بهاء قمر مكتمل، وأكل كعكة القمر، ذكرى وفاء زوجة .

نحن الصغار نلعب طول اليوم حتى تهد قوانا. في المساء نجتمع حول الجدة التي لا تمل من إعادة نفس الحكاية كل سنة، حكاية الجميلة تشانغ، وإسقاط بعض التفاصيل كلما تقدمت في العمر .

«كان يا ما كان، في قديم الوقت والزمان، عشر شموس تحيط بالأرض. كانت هذه الشموس تحرق المحاصيل

فيعطش البشر ويجوعون. كان في المملكة رامٍ شجاع اسمه هاؤ وي، مشهور بدقة رميه السهام، أسقط تسع شموس ولم يترك إلا الشمس الواحدة التي نعرفها الآن . لمكافأته قدم له إمبراطور الخلود حبتي خلود، واحدة له وواحدة لزوجته الجميلة تشانغ .

وفي انتظار رأس السنة الجديدة، اليوم الموسوم لتناول حبة الخلود، تأجج الطمع في نفس أحد تلاميذ هاؤ وي، فتحيَّنَ الفرصة وهجم على زوجة معلمه ليرغمها على إعطائه الحبتين. تحت ضغط اللحظة، ابتلعت تشانغ الحبتين معا. إلا أن تشانغ ظلت عالقة في الهواء، لم تصعد إلى مرتبة الخلود ولا نزلت إلى مرتبة الإنسان الفاني حيث زوجها حبيبها . فاختارت القمر كأقرب كوكب للأرض وسكنته. غضب هاؤ وي حين عرف بالأمر. ظهر طيف زوجته في القمر، لكنه عجز عن اللحاق بها. منذ حينها وهو يتطلع للقمر ».

هكذا أصبحت الجميلة «تشانغ» من بين آلهتنا الصغيرة التي ترتب حياتنا، ونلجأ إليها نحن الصغار حين لا نجد مأمنا عند الكبار. أو حين لا نجد تفسيرا أو جوابا لأسئلتنا، ونواجه بأفعال الأمر والنهي : افعل هذا، لا تفعل ذاك .

في سنوات الحرب، اختفى طيف تشانغ الجميلة من القمر. ولم يعد في خزائن المؤونة إلا القليل. أصبحت

الأمهات يهيئن، بصعوبة، بعض قطع من كعكة القمر بالطحين والسكر فقط دون حشوة الفستق .

اللحظة السعيدة الثانية من لحظات الطفولة التي وشمت الذاكرة والقلب، كانت هي تلك العروض المسرحية التي تقام مرتين في السنة بالتناوب بين فرقتين قادمتين من المدينة. فرقة تزورنا في الربيع وأخرى في فصل الصيف .

بيوم سابق، يزين جسر تشو لانغ بالأعلام الملونة، تنصب خشبة المسرح في ساحة القرية التي تحتضن، في العادة، السوق الأسبوعية لتبادل البضائع بين القرى المجاورة. يوم العرض يعلق ستار كبير – الديكور الوحيد – الذي يختلف لونه ورسومه باختلاف الحكاية الممسرحة. تعاد نفس الحكاية أكثر من مرة، لكن بأسلوب وديكور مختلف حسب الفرقة. الحكايات كانت تتنوع بين القصص التاريخية والميلودراما الشخصية، باعتماد الغناء والتمثيل والرقص وحتى الحركات القتالية .

في الطريق من البيت إلى الساحة، أسرع الخطى لأكون من أول الوافدين، حينها تكون الخشبة جاهزة. أتسلل خلف الستار وأراقب الممثلين يتجهزون للعرض. يصبغون وجوههم بالألوان والمساحيق. حين يكتمل القناع ولا يتبقى من الشخصية الحقيقية غير العينين.

يرتدون الملابس الزاهية ذات الأكمام الطويلة والحواشي المتدلية والقبعات العريضة .

كنت معجبة بغناء وثياب شخصية المحظية في مسرحية أوبرالية مقتبسة من قصة واقعية مشهورة. هذه الشخصية كان يشخصها ممثل شاب ومشهور بأداء الأدوار النسائية. شاب جميل، ذو جلد لامع، ووجه شديد البياض يؤطره شعر كثيف السواد. كنت وحدي أعرف الوجه بلا قناع من خلال تلصصي على الممثلين قبل العرض. لحظة كان الممثل يفرد المروحة العاجية ليغطي وجهه ولا تبدو إلا عيناه، يتحرك شيء ما لا أفهمه، في داخلي .

لا أذكر عنوان المسرحية فقد كان يغير من فرقة إلى أخرى، لكنني أذكر أنها كانت قصة حب بين ملك ومحظيته، تنتهي بمأساة انتحار المحظية لأنها رفضت العيش بعيدا عن سيدها الذي فقد ملكه وجاهه فقرر بيعها .

طالما حاولت في البيت، وأنا صغيرة، تقليد المحظية بماكياجها وارتداء فستان زفاف والدتي الحريري. بطبيعة الحال، كنت مستعدة لضربات عصى الخيزران على مؤخرتي في كل مرة .

تباعدت زيارات الفرق المسرحية للقرية تدريجيا، ثم توقفت نهائيا حين جاء زمن الرفاق الذين ارتأوا أن

المسرح بقصصه وشخصياته موروث رجعي. واستبدل بعروض سينمائية في نفس الساحة، هذه المرة العرض كان بالأبيض والأسود ففقدت الفرجة ألوانها .

قبل بداية الفيلم، يقدمون ما يرونه صالحا للشعب من الأخبار الدولية، والتي كانت تدور حول الحرب والمعاهدات وفك التحالفات وأفلام الدعاية .

كنت أنام في منتصف العرض. وأحلم بعيني المحظية الرماديتين واللامعتين، واللتين سألتقي بهما بعد ثلاثة عقود في أحد شوارع مدينة نانجينغ .

قرية جسر تْشو لانْغْ.. خريف 1937

منذ وصول العساكر اليابانيين، تضاربت الحكايات حول مصير أخي يونغ الذي اختفى فجأة. منهم من ادعى أنه رآه جثة هامدة بعد قتال بين عصابتين، ومنهم من زعم أنه حارب إلى جانبه ضد الغزاة بعد أن تحولت عصابته إلى كتيبة محاربة في صف المقاتلين الصينيين، واستشهد في إحدى المعارك .

الحقيقة لم تكن واضحة، لأنه تنقل بالفعل بين القتل المشروع والجريمة. مرة كان عضو عصابة، ومرة كان مقاتلًا للأعداء، ليعود إلى العصابة كرئيس لها .

منذ صغره كان يونغ قاسيا، قسوة غير عادية بالنسبة لطفل في سنه، ومقارنة بوالدي الرجل الصامت، المسالم، المهادن والطيب. مرة سمعت جدتي تقول إنه ورث عنفه وقسوته من أمه، امرأة المدينة المجهولة، امرأة لديها من القسوة ما يكفي لتتخلى عن طفلها وهو في القماط .

جدران غرفة يونغ مغطاة بصور الساموراي وشخصيات مشهورة في المبارزة والقتال. حاول والدي أن يحد من عنفه بتوجيهه لممارسة الكونْغْ فُو كرياضة للتحكم في الذات وتهذيب النفس، لكن ذلك كان دون جدوى. رائحة

الحشيش تفوح دائما من ثيابه. حين اطمأن لاستسلام والدي، أصبحت تلك الرائحة تفوح من غرفته .

كنا نشك أن لديه دموعًا كباقي البشر، حتى يوم ماتت كلبته التي تتبعه أينما ذهب منذ كان صغيرا حتى صار صبيا .

ماتت الكلبة قبل الحرب بثلاث سنوات. تمددت ذات ظهيرة، تحت سقيفة الحظيرة وماتت بهدوء من الشيخوخة. حين جثا يونغ منحنيا على جثة الكلبة وأجهش بالبكاء، صعقنا .

بسرعة، تقدمت أمي نحوه ونهرته :

- قم، كن رجلا وأعِد دموعك لمكانها .

انتصب واقفا، مسح دمعه وغادر جريا نحو الحقول، تاركا لنا مهمة دفن الكلبة .

معرفة يونغ بالأسلحة تعود لزمن قبل الحرب. كان يستطيع أن يفك ويركب مسدسا في الظلام وبسرعة قياسية، فقد ضبطته يوما ينظف مسدسا بحجم حذائه .

جْينْ مَيْ أقسمت لي أنها رأته بجانب النهر، يشحذ سيفا طويلا على حجر صلد. ولكي أطمئن جْينْ مَيْ سريعة

العطب، أخبرتها أنه يحتاج السيف لتقشير سمك الحفش الذي يصطاده من النهر، وللدفاع عن نفسه فقط .

أول عملية قتل قام بها يونغ، كانت امتحانا لإقناع رئيس عصابة بقدرته على القتل بدم بارد. كان على من يرد الانضمام لصفوف عصابة الجبل أن يقدم دليلا على شجاعته ومتانة مشاعره. ومن سوء حظه، أنه كان عليه أن يقوم بقتل راهب حشر أنفه في مشاكل بين عصابتين .

يُحكى أن يونغ أصابته الرهبة من قتل رجل سانغا، فأغلق عينيه. منذ حينها تبعته لعنة المعبد، إلى أن اندلعت الحرب فاضطرت كتيبته للاحتماء بمعبد القرية. تعرف عليه أحد الرهبان، فطمأنه : «لقد كنتم قطاع طرق والآن أصبحتم جنودا، بدماء الغزاة غسلتم دماء أبرياء لطختْ أيديكم. فاذهبوا بسلام ».

أما أنا، فمنذ الصغر، كان عليّ أن أتجنب الاصطدام بيُونْغْ. لأنني، وبحدسي الذي لا يخطئ، أدركت أنه الوحيد في العائلة وربما في الدنيا الذي من الممكن أن يقص جناحَيَّ ويمنعني من التحليق بعيدا وراء البحر .

قرية جسر تْشو لانْغْ.. شتاء 1937

لم يكن المجتمع وحده الذي يتحكم في قيمة الذكر والأنثى، الحرب كذلك مارست تمييزا مجحفا على جَسَدِ الأنثى. تستعمله بإذلال أو ترفعه . فكان الاغتصاب أقصى درجات الإذلال والقتل .

الغزاة غزوا الوطن وأجسادنا نحن النساء. بالمعنى الديني، دنسوا الأرض ودنسوا الجسد. اعتبروا أجسادنا غنيمة حرب. فعانينا من احتلال مزدوج. احتلال الوطن كمكان عام، واحتلال الجسد كمكان خاص. كانت نساء قرية جسر تْشو لانْغْ يلطخن وجوههن برماد الفرن إذا باغتهن العدو في البيت، أو بالطين إن كن يغسلن الثياب بجانب النهر. يخفين جمالهن كي لا يتعرضن للاغتصاب .

لذلك لم أكن أخرج من البيت عزلاء. أخبئ دائما مقصا بين طيات ثيابي. المقص الذي كان من لوازم أعمال الخياطة والتطريز. لكنني لم ألطخه بدم أحد. كان للدفاع عن النفس. استعملته مرة واحدة مضطرة في إحدى جولاتي الليلية لقتل كلب مسعور هاجمني من بين الأحراش . فقد انتشرت الكلاب في كل مكان، سمنت بالجثث التي كان يرميها النهر أو يسحلها المقاتلون في الجبل. هذا المقص الذي لم يعرف قبل الحرب سوى ملمس الحرير والأيادي الناعمة عرف عنفا

آخر يوم دلف أخي يونغ إلى البيت لاهثا، تخطى سيقاننا الممدوة واختطف المقص من يد جُينْ مَيْ وخرج ليقص به ضفيرة إسكافي الحي العجوز، فقد حامت حوله شبهات الوشاية والتعامل مع العدو .

في الحرب الأولى، أقصد الحرب اليابانية الصينية، لم أتعرض للاغتصاب رغم مغامراتي الكثيرة. كان لدي حدس ذئبة أشم الخطر من بعيد .

جُينْ مَيْ تعرضت للاغتصاب. هي لا تذكر ذلك، ذاكرتها انتقائية . كما لا تعرف أن حبها الأول كان ممثلا مخنثا في فرقة مسرحية تزور القرية كل ربيع قبل الحرب. كان لها ذوق خاص في الرجال منذ الصبا. تحب الرجل الهادئ والغامض .

كنت أتسلل ليلا للقاء شاب مقاتل قادم من قرية مجاورة . عرفت، بعد هذه السنوات وهذه الموانئ والكثير من المدن والأسفار والحروب، أنه كان حبي الأول البريء. كان وسيما، طويل القامة عريض المنكبين. الأكيد أن أصوله منغولية. للرجل الذي تزوجته فيما بعد بعض من ملامحه .

كان جسدي قد نضج، في أوج فوران الصبا، وكنت أبحث عن ماء يطفئ ناري. صادفته في سوق القرية في خضم الحرب والتوجس والخوف. التقت عينانا واخترقني شعاع لم أدرك معناه. رجة قلبي والدم الذي

صعد إلى وجنتي جعلاني أرتبك وأسلم له سلة المشتريات. دون أن ينطق كلمة واحدة ساعدني في حمل السلة حتى مشارف الحي. كنت أمشي أمامه في وجل وأتعثر في الوحل. وكنت أحس بنظراته وهي تلتهمني قطعة، قطعة. لم أجد حينها تفسيرا سوى أن اشتعال جسدي بذلك الشكل يشبه اشتعاله بنزلة حمى أنفلونزا الشتاء .

بعد جولات من العشق واللقاءات الليلية، طلب مني حبيبي خدمة وطنية، وجدتها حينها عادية ومشروعة، أن ألهي العسكري الياباني حارس البرج. كي يمر قارب المؤونة للمقاتلين في الجبل. ربما لم تكن موافقتي بدافع الحب وحده، وإنما بدافع الرغبة التي تسكنني في المغامرة والإطلال على هاويات الخطر .

ألتقي بعشيقي تقريبا كل ليلة خلف المعبد، إلا ليلة يشتد القصف ويبيت والداي مستيقظين . نتبادل كل أصناف العشق ثم يقبلني قبلة وداع طويلة. يوشوش في أذني وصيته، أن أحافظ على حياتي. ثم أمضي إلى مهمتي كما يمضي العسكري إلى ساحة الحرب. أتسلل نحو برج المراقبة الخشبي الذي بناه العدو على رأس الجسر، لقطع الطريق على مراكب المقاتلين وعلى السكان الهاربين من القصف إلى الجبل الأحمر .

بعد التأكد من أنهم لم يغيروا العسكري المناوب، أصعد الأدراج الخشبية بثبات المقاتل، وتبدأ المعركة بين

جسدي الصغير وعيون العسكري الجائعة. أراوغه ما استطعت لأعطي المزيد من الوقت لعبور المقاتلين والمؤونة. يهديني العسكري بعد كل جولة علبة شوكولاتة .

وكما هو متفق بيني وبين عشيقي الذي يختبئ عند قاعدة البرج، يراقب عن كثب، تسمع أصوات خطى عسكرية وهي تقترب من البرج، يسرع العسكري إلى بندقيته، بإشارة منه يأمرني بالانسحاب. وتنتهي مهمتي العسكرية .

لم أعلم أن جْينْ مَيْ كانت تتبعني، إلا ليلة مقتل عسكري البرج. ليلة لا تنسى . فقد قرر المقاتلون قتل حارس البرج للاستيلاء على ذخيرة سلاح وصلت حديثا من شانغهاي. عانقني حبيبي عناقا أطول، وقبلني قبلة أعمق، لأن المهمة كانت أخطر وقد لا أعود منها حية . فيما بعد، وحين اختفى نهائيا، عرفت أنها كانت قبلة وداع صادقة وأخيرة .

تلك الليلة، كنت أكثر حماسا، لدرجة أنني سمحت للعسكري بتقبيلي على شفتي، كما تركت يده تمضي إلى مناطق أعمق في جسدي. كان عدوي، وكان شابا على حافة الموت، فأهديته بأريحية لحظة حب ممتعة. فقد أحسست أنه تعود عليّ، وحمل إليّ بعض مشاعر الود، وإلا كان قتلني في إحدى نزواته كما يفعل العساكر اليابانيون الآخرون .

قُتل العسكري وسرق العتاد .

تحت وابل من المطر، هربت مسرعة، قبل أن يكشف أمر مقتل الياباني وينتشر العساكر في كل مكان. في طريق العودة، وبمجرد ما عبرت الجسر، تعثرت في جسد جْيِنْ مَيْ شبه مطمور في الطين والوحل. كانت فاقدة الوعي، ممزقة الثياب، تكاد تكون عارية، ما تبقى من ثوبها مبلل وملتصق بجسدها. من النظرة الأولى، عرفت أنها اغتصبت. كان جسدها ثقيلا، صفرت ثلاث مرات بصوت طائر الدوري - العلامة التي كانت بيني وبين عشيقي - فحضر شابّان لم أرهما من قبل. بعد ساعة كانت جْيِنْ مَيْ نائمة في سريرها بالبيت .

لم أنم، كنت خائفة من أن تخبر جْيِنْ مَيْ والدتي في الصباح،
عما حدث في تلك الليلة. سيجلدني والدي، وإن لم يفعل، سيقتلني يونغ لا محالة. ثم إنه كان عليّ انتظار مطلع النهار لأعود إلى حيث وجدت جْيِنْ مَيْ لأنظف المكان. وفعلا وجدت تبان أختي عالقا بالحشائش بعد أن جرفته المياه. كان سيكون دليلا على اشتراك نساء في مقتل العسكري. وسيكون الانتقام بخطف واغتصاب المزيد من فتيات القرية .

في الصباح استيقظت جْيِنْ مَيْ كما العادة، وارتدت ملابسها ثم التحقت بالمطبخ إلى جانب أمي، كأن شيئا لم يقع. بعد الإفطار استأذنت أمي في أن تعود إلى

السرير فقد كانت تشعر بالبرد وبداية أنفلونزا. كنت أراقبها عن كثب وأتحاشى أن أنظر إلى عينيها الذابلتين. لم تكلمني ولم تنظر إلى ناحيتي. كانت الصدمة بادية على ملامحها .

في الغد، ونحن في طريقنا لجلب الماء، توقفت وأنزلت عن كتفيها الدلوين المتدلين من الخطاف المثبت بالعصا، وانهالت عليّ بالشتائم واللوم. وسألتني كيف أجرؤ على تعريض العائلة للخطر، وكيف استطعت أن أضاجع عدو أهلي. وكيف تجرأت وأطعمتها من شوكولاتة العدو. لم تذكر نهائيا حادثة اغتصابها .

حاولت أن أستدرجها في الكلام، لكن ذاكرتها مسحت تماما من ذلك الحدث المفجع. هل اغتصبوها وهي فاقدة للوعي، لما رأته من حادث مقتل العسكري الياباني؟

- «لو خرجت مرة أخرى في الليل، أقسم بالأسلاف أنني سأخبر والدي ».

هددتني وسارت بسرعة أمامي نحو النهر .

طيلة ثلاثة أشهر وأنا أراقب بطنها خشية أن تكون حاملا .

لم أعرف أبدا من فعل بها ذلك، لكنني كنت متأكدة أنه ليسوا من المعسكر الياباني، وإلا كانوا قتلوها بعد

فعلتهم. شككت أنها كانت ضحية الصراع بين جيش الكومينتاج والمقاتلين الشيوعيين. فقد كانوا يقاتلون نفس العدو ويختلفون حول السلاح. وكمية السلاح التي أُستولي عليها في البرج كانت كبيرة .

لم أعرف كيف بررت، فيما بعد، لزوجها فقدان عذريتها .

انتظرت لأيام إشارة من حبيبي المقاتل الذي أحببته رغم أنه كان يستعملني، لكنني لم أعرف حينها، هل كان يستعملني للخيانة أم من أجل الوطن .

في يوم مشمس وصحو، أخذنا الغسيل نحو النهر. قبل أن نغادر في المساء، جاءني حبيبي جثة منتفخة هامدة، وجهه للسماء، وبنفس ملامح الانتشاء التي كنت أراها على وجهه في لقاءاتنا السرية .

قرية جسر تْشو لانْغْ.. شتاء 1937

المشاكل الصغيرة للعائلة بدأت تأخذ حجما أكبر مع اتساع دائرة الحرب. القرية لم تكن معزولة تماما. كان النهر يأتي بالبضائع والفرجة، وبالموت أيضا. فالقرية التي تجانب بحرا أو نهرا، قرية مضمونة الحياة، كما كان يكرر والدي، متجاهلا أنها كذلك قرية تثير الأطماع وتجلب الموت .

كانت الحرب من عطايا النهر كذلك .

بعد أن كان القتال على السلطة بين الإخوة الأعداء، دخل طرف ثالث من جهة الشرق. قريتنا كانت على النهر الكبير، وفي طريق الغزاة نحو هدفهم مدينة نانجينغ. فكانت حصتنا من ويلات الحرب أكثر .

أصبح الموت في كل مكان، يصطاد النساء والأطفال والشيوخ والأجنة في مائها الأول .

كان الليل طويلا بتوجساته، فنلوذ بالطابق السفلي، نتكتل من الخوف، ونتساءل: من أين سيأتي الموت هذه المرة، هل سيصعد من الأرض؟ هل سيهطل صبيبا من السماء؟ الهواء خانق والطائرات لم تترك حتى فسحة لطائر الكركي ليمد جناحيه. المخابئ أصبحت خائفة على خائفيها .

في الصباح تمزق السماء شراييينها وتمطر دما. يتقيأ النهر جثثا بالمئات. تمساح النهر أصيب بالتخمة، ولم يعد يأكلها. تنام ملائكة الرحمة وتستيقظ الذئاب لافتراس البشر. تتخلى السماء عن الجميع، حتى الأطفال .

شح الطعام، وتفشت أمراض ساهم في انتشارها الجو الحار والرطب، كالإسهال وداء الرئة. فالقرية لم تعد تستوعب كل النازحين من الشرق، الوافدين للمبيت يوما أو اثنين، قبل أن يتابعوا هروبهم نحو الغرب، أو الاختباء في الكهوف والمغارات.. كانوا من مختلف الشرائح الاجتماعية: موظفو بنوك، مبشرون، سائقو عربات الريكشو، حلاقون، فلاحون، تجار، وملاك. لم يعد اليوان المكدس في حقائبهم يجدي نفعا، فقد فقدت العملة قيمتها أمام البضائع. كما فقدت الشجاعة والالتزام قيمتها الأخلاقية. فاستقبلت القرية جنودًا معطوبين أو فارين من ساحات الحرب .

لم تكن هناك سيارات إسعاف ولا صفارات إنذار كما في المدن، فكانت الطائرات تحصد أرواحا أكثر .

في الليل تتسلم الجدات قيادة حروب أخرى.. الكلام الشفوي ليس كالكلام الموثق، لهذا تجد الحكاية دائما ساردات أخريات يختلفن فقط في بعض التفاصيل الصغيرة.. الجدات ذاكرة الحروب السابقة يتقن الحكي في ليالي الرعب الطويلة. يتحلق الأطفال حول الفرن،

يملأون دلاء الخوف من فم الجدة الدرداء، قبل أن يأتي الغزاة لنزع الحياة من الأسرّة الباردة المبللة ببول الخوف والعطنة برائحة البارود .

ينام الأطفال، تتوقف الجدة عن الحكي، تأخذ والدتي الخوذة الفارغة من حبات الذرة المشوية إلى المطبخ. قد تجد في بيوت كثيرة خوذة أو اثنتين، فهي كثيرة الاستعمالات، من بينها مرحاض للرضع .. قوتْشينْ كانت تحتفظ بواحدة، تضع فيها إبر التطريز وخيوط الحرير. فهي لها من الجرأة لتسرق ميتا، بنفس السهولة التي كانت تلتهم بها قطع الشوكولاتة المحشوة بالفستق، التي يهديها لها العسكري الياباني.. ومع ذلك لا تتورع عن شتم عسكري. ونحن نلعب أمام البيت، يحدث أن يمر علينا جنود يابانيون يقودون صفا من الأسرى. المقاتلون لا يظهرون في واضحة النهار إلا كأسرى. تبصق قوتْشينْ على يمينها وعلى يسارها، مبدية امتعاضها .. ثم تفر لتختفي في بيت من البيوت المهدمة التي أصبحت ملعبا للأولاد ومكانًا غامضا للبنات. الأنقاض أصبحت ساحة حرب صغيرة . لعبة حرب بين المقاومين والغزاة. من يخف دخول البيوت المهدمة فهو عسكري ياباني جبان ومن له الشجاعة من الأولاد هو من المقاومة.. طوال النهار لا تنهد عزيمة الأولاد.. بينما يتصاعد دخان كثيف من الضفة الأخرى لنهر تشينهواي، هناك، المعارك أشد والجسر الرابط بين الضفتين دمر عن آخره.. سيظل حشد من الهاربين من

مدينة سوشو عالقين هنا في القرية. وأسعار المواد الغذائية سترتفع وتقل المؤونة. هم أغنياء فارُّون محمَّلون بسبائك الذهب وطنافس الحرير.. الخاسر الأكبر هم الفقراء، في الحرب كما في السلم .

قرية جسر تْشو لانْغْ.. شتاء 1937

حتى ولو كنت على معرفة بما يجري حولنا من تغيّرات سياسية، فليس للحرب وجهة نظر، الأحداث تجاوزت كل القوانين والأعراف . اختلطت الأوراق، وأصبح من الصعب التمييز بين انتماءات الأشخاص كما الجثث. هناك مقاتلو الحزب الوطني، ومقاتلون شيوعيون، وقطاع الطرق، والخونة الذين يحاربون في صفوف اليابانيين، ثم العساكر اليابانيون .

انعدمت الثقة بين المواطنين، وغامت الرؤيا في عيون الكثيرين. قتال ضد العدو واقتتال بين الإخوة .

في الكثير من الأحيان تندلع معارك شرسة بالسلاح الأبيض بين الصينيين أنفسهم، يشارك فيها مقاتلون لا يعرفون لماذا ولصالح من يقاتلون .

المرتزقة من قطاع الطرق والمجرمين، نزلوا من الجبل واندسوا بين صفوف المقاتلين أو بالأحرى دعاهم الحزب الوطني للانضمام إلى صفوفه، لحاجته إلى قلوب ميتة وأياد قاتلة أمام شراسة ولا أخلاقية العساكر اليابانيين.. ثم، كان هناك عامل قوي ساهم في هذا الخلط وهو الجوع .

هكذا انعدمت الثقة حتى بين أفراد الأسرة الواحدة .

لم تتّضح الرؤية إلا عند نزول العدو إلى الأرض.. ففي البداية اعتمد الغزاة على القصف وغارات الطائرات .

كان غزوا جبانا، فمن قتلوا في القرية بالقصف وبالقنابل، في الحقول والشوارع، يفوقون بكثير من قتلوا في ساحة مواجهة حقيقية.. وهل كانت هناك بالفعل معركة بين جيشين؟

في الليل تسمع طلقات النار قادمة من الجبل، يعرف سكان القرية أن هناك مقاتلين يتدربون على سلاح جديد، فيشعرون بالاطمئنان. حين تبتعد أصوات الطلقات أو تختفي، تصاب العائلات بالهلع والخوف من مذابح قادمة .

معظم المقاتلين كانوا حفاة بأسمال بالية، يعتمدون على أسلحة بيضاء يصنعونها بأنفسهم. ومع ذلك يقسمون بالنصر، ما أخر هروب عائلات كثيرة من القرية، لأنهم صدقوا شعارات شباب مندفع دون خطة أو سلاح أو طعام .

أصبح الغرب قبلة للجميع . حين اشتد القصف والتقتيل في مدينة شنغهاي ونواحيها، بداية الغزو، عرفت قريتنا نزوحا كبيرا من سكان شنغهاي. وبعد وصول اليابانيين إلى القرية هرب الكثيرون نحو أقرب مدينة؛ نانجينغ. حملوا معهم الطعام وما استطاعوا من المتاع .

فاجأنا والدي بقرار الهروب ليلا إلى المدينة، فقد مر النهار بشكله المعتاد، حتى أن والدي، وفي صباح نفس اليوم، خرج إلى الحقل باكرا، كعادته، لري ما لم يحرق من الزرع. ليس للتمويه، وإنما لارتباطه القوي بالأرض .

أقنع والدي صاحب قارب صغير، بحكاية أن ابنه البكر هو أحد المقاتلين وأنه هو من نكل بجنرال ياباني ونزع فروة رأسه، وأنه يخاف على البنتين من انتقام العسكر. فألسنة الجيران لابد أن تفلت بعض الأخبار إن لم يكن للوشاية فللافتخار بأن واحدا من حيهم قام بعمل جبار .

صدق صاحب المركب حكاية والدي، وتعاطف مع رجل أنجب بطلا شجاعا يدافع عن أرض الوطن، فهمس في أذن والدي كل القصص المرعبة التي يتناقلها الناس عن المذابح الجماعية والتقتيل الذي يقوم به من وصل من العساكر اليابانيين في المدنيين بمدينة نانجينغ.
ونصحه بالاتجاه نحو مغارات الجبل الأحمر ريثما تهدأ الأوضاع في نانجينغ .

لم نكن نعرف، نحن القرويّين، نكبات وموتا جماعيا إلا نادرا بسبب الفيضانات حين يغضب النهر . لهذا كانت تلك الأخبار كابوسا بالنسبة لنا .

كنا نحن النساء، والدتي وجْينْ مَيْ وأنا، في قعر المركب، ولم ندر بتغيير الاتجاه إلا حين أنزلونا عند

سفح الجبل . وأمرنا والدي بصعود المرتفعات بأسرع وقت ممكن .

ليلة الهروب كانت تشبه ليلة مقتل العسكري الياباني، في التوجس والخوف والبرد .

في المركب، لم ينظر والدي إليّ. رأيته يمسِّد على شعر جْينْ مَيْ ليهدئها ويتجاهلني. اللحظة الوحيدة التي التقت عيناي بعينيه، كانت ونحن ندخل المعبد للاستراحة، وانتظار ضباب كثيف يحجب المركب عن عيون العسكر، رأيت في عينيه شررا، وفورةً من الغضب تجاهي .

وحدي عرفت، حينها، أن هروبنا من القرية لم يكن بسبب العار الذي لحق بالعائلة، بحجة نسب مزعوم لضابط فر من إحدى المعارك وترك الجيش بلا قائد، كما أخبرتنا أمي، وأن مغامراتي الليلية من أساب الرحيل .

كيف عرف والدي بتورطي في مقتل العسكري الياباني؟ ومن أين حصل على المعلومات، هو الذي يقضي يومه منحنيا على النباتات في الحقل، لا يرفع رأسه إلا للأكل السريع، وينام ليلا كثور مهدود القوى؟ من وشوش له بذلك؟ وهل يعرف الطريقة التي استدرجت بها العسكري؟ ماذا لو كانوا رفاق يونغ هم من أخبروه؟ ماذا لو كان يونغ مازال حيا في الجبل؟ أصابني الرعب بمجرد التفكير في ذلك. أبعدت نظري عن والدي،

واختفيت وراء جرس المعبد الكبير إلى أن نادتني جْيِنْ مَيْ لأنام بجوارها على الحصير .

قرية جبل تْشو لانْغْ.. شتاء 1937

السماء تغلي، الأرض تغلي، وفي هذه الظروف كان جسد أختي قوتْشينْ يغلي كذلك. صبية مفعمة بالحياة بدرجة مخيفة .

جسد أختي التوأم قوتْشينْ كان يسكنه شيطان صغير، ظل ينمو ويكبر معها، كلما كبر ازداد الشر النابع منها. لا أحد كان يرى ذلك الشيطان غيري أنا التي عشت في ظلها .

حين نجتمع حول الطعام تطأطئ «قوتْشينْ» رأسها بمسكنة، متصنعة الخجل. تتحاشى التقاء عينيها بعيني أخي الكبير يُونْغْ الثاقبتين واللتين تقدحان شررا كلما حطت عيناه على إحدانا .

يُونْغْ يكبرنا بسنوات. والدي أرخ مولده بالسنة التي احمر فيها النهر، وهو تاريخ خاطئ. حين وعيت كان هو بقامة أبي، بجسد قوي وعضلات مفتولة. يداوم على التمرينات والحركات القتالية في باحة البيت حتى في قساوة البرد وهطول المطر. يرغمنا على حمل دلاء الماء ومَلْء الخزان من أجل استحمامه. نخافه أكثر مما نحترمه. يغيب عن البيت أكثر مما يتواجد فيه. أمي تقول إنه يذهب لصيد سمك الحَفَش وبيعه لأغنياء القرية. يغادر البيت فجرا ونحن نيام، ويعود في وقت

متأخر من الليل وهو يجر وراءه رائحة السمك مختلطة برائحة عشب محروق .

إذا كان أخي صيادا، فلماذا تشتري أمي السمك من سوق القرية، وهو لا يحدث إلا نادرا؟

دخلت غرفة يونغ يوما، فوجدته ينظف مسدسا . طردني بقوة جعلتني أصطدم بدعامة خشبية. مع الوقت فهمت أن والدي لم يكن راضيا عنه تماما. لكن وضعه كذكر في العائلة كان يلجم لسانه، ويجعل أمي تفضله علينا. فولادة ابن ذكر تضمن الخلود الروحي للوالدين، وبنتان لا تساويان ولدا ذكرا . كلما احتجت قوتْشينْ على هذا التمييز - أنا لم أكن أجرؤ - بررت أمي بنفس الجملة: «هو ولد». هذه الجملة التي حفرت في داخلنا أخاديد من الألم والاضطهاد. لا أحد كان يفرح لولادة الإناث قبل المد الشيوعي. تحاول العائلات التخلص منهن، ما أمكن، وهن صغيرات بوعد بالزواج أو بزيجات مرتبة من قِبَل خاطبة، مهنة كانت مزدهرة في ذلك الوقت . المحظوظة بين الطفلات هي من تحظى بطفل من المدينة، فالعريس هو كذلك يكون لا يزال طفلا .

مع الوقت، فهمت أنا وقوتْشينْ، أن الابتعاد عن طريق يُونْغْ ما أمكن، والاختباء تحت اللحاف كلما ظهر، هي الطريقة الأسلم لنا . هذا الإحساس بالتفضيل والدونية وطد علاقتي بأختي وغذى تواطؤاتنا .

ليست هناك علاقة أقوى من الأمومة، الأم والبنت تتشاركان نفس الجسد طيلة فترة الحمل. وأنا شاركت أختي نفس الجسد ونفس الماء في بطن أمي. رابط لا يفكه سوى الموت .

راودتنا نفس الكوابيس والأحلام. وأنا صغيرة كنت أهرب من فراشي ليلا وأندس بجوار أختي لأحتمي بجسدها النحيل. لم تكن أمي هي المثال بالنسبة لي كباقي الطفلات، قوتْشينْ كانت أمي بشكل من الأشكال. أتحرك حين تتحرك، آكل حين تشعر هي بالجوع، أبكي حين تبكي، ونضحك في نفس الوقت من أشياء لا تدعو الآخرين للضحك، كفم الجارة الفارغ من الأسنان، أو من بنت الجيران وهي ترتدي خفها الخشبي بالمقلوب .

قوتْشينْ كانت أكبر مني، سبقتني إلى العالم بدقيقتين، إذ كانت أول من غادرت بطن أمي. غير أنني في تلك الدقائق القليلة التي بقيت فيها وحدي، وحين وجدت الفراغ يلفني في الرحم، اعتقدت أنها ماتت، فخفت أن أواجه الوجود الجديد وحدي .

على عكس قوتْشينْ ذات اللون القمحي، والجسد النحيل، كان جسدي مكتنزًا ووجهي دائريًّا شديد البياض. بياض شفاف إلى درجة أن العروق الصغيرة كانت تبدو واضحة من تحت الجلد.. خصوصا على خَدَّيَّ المشتعلين حمرة. في الشتاء عندما يسقط الثلج ويشتد البرد يتدرج لون وجنتيّ من الحمرة إلى الوردي

ثم نحو البنفسجي الغامق. في البيت، أمام الفرن
أسترجع بسرعة حمرة الخدّين .

جارتنا القريبة عائشة، كانت ترى أنّ والدَيّ أخطآ في
تسميتي جْيِنْ مَيْ (الزهرة الذهبية) وكان عليهما أن
يسمياني دِي لَيْنْ (الفراشة البنفسجية) ، استنادًا لشكلي
وتاريخ مولدي في شهر فبراير. زهرة الفراشة
البنفسجية هي نوع من الأوركيديا تنبت في الجبال،
تتفتح بضعة أيام من فبراير البارد وتذبل بسرعة .

نانجينغ.. خريف 1938

لا أدري متى بدأت هذه العادة، لكنني حين وعيت وجدتني أروي لنفسي حكايات قبل النوم، أكون أنا بطلتها. حكايات غريبة جدا، كأنْ أكون طفلة متبناة من عائلة غنية وراقية، لأن والدَيَّ توفيا في حادث حريق البيت، هذا الحريق الذي التهم أخي يونغ كذلك، ولم أنجُ إلا أنا وأختي جْيِنْ مَيْ، فقد كنت أحبها وأنهر أحلامي كي لا تقتلها. بل أتخيلها تعيش تحت كفالة قريب بعيد لم ينجب أولادا .

حين أستعيد تلك الحكايات، التي كانت بمثابة أمنيات، أخلص إلى أنني كنت شريرة الأعماق. أو ربما لم أكن بهذه الدرجة من الشر، لكن الأكيد أنني لم أكن سعيدة بعائلتي، وأنني عشت قسوة الحرب وقسوة والدي، كنت مرغمة على القيام بأشغال البيت وجلب دلاء كبيرة من الماء. بالإضافة إلى التمييز بين الذكور والإناث، ومعاملة يونغ القاسية، لي أنا بالضبط، كعنصر متمرد في العائلة .

القصص والحكايات التي كنت أتسلى بها قبل النوم، بدأت تأخذ أشكالا وطرقا متطورة، إلى أن أصبحت تمر في مخيلتي كأشرطة مصورة بالألوان. وأصبحت أحلامي تبتعد عن القرية، ثم عن المدينة، لتأخذني إلى بلدان بعيدة وأماكن جميلة، وتعرفني على بشر من طينة أخرى. ربيت طموحات صغيرة، كبرتْ وتحولت

إلى أحلام مرتبطة بالواقع. منها الحلم برجل يقع في حبي ويأخذني إلى بلاد بعيدة أكثر دفئا، بلا حروب أو اقتتال .

في البداية، لم تكن تلك الأحلام والقصص التي أنسجها سوى تعويضٍ عما أفتقده في واقع الحياة. أصوغ تلك القصص كي لا أيأس وأنتحر .

الأحلام تحولت إلى أوهام، ثم إلى رغبات تلح على تحققها في الواقع .

لم ترق لي مدينة نانجينغ . فبالإضافة إلى مخلفات الحرب كانت مدينة بلا بحر. والمدينة بلا بحر هي مدينة بلا أبواب، مغلقة على نفسها. لا تتماشى ورغبتي في الرحيل. ربما لم تَرْقَ لأفق انتظاري . كنت أنتظر مدينة زاهية، مضاءةً بفوانيس حمراء في الليل، وتشع بنور النهار .

الألوان الغامقة للبنايات غمَّت على نفسيتي. كنت أنتظر مدينة تصدح بالموسيقى والرقص. لكن كل ما كان يذاع، كان أغاني وطنية وأغاني جنائزية وأسطوانات تنتحب على من قتل أو مات .

حين وصلنا وجدنا المدينة تنظف شوارعها من الجثث . تصفي حساباتها مع الخونة والمتعاملين مع الجيش الياباني في الليل، وتلوذ بالبيوت في النهار هربا من

دوريات العسكر الياباني التي تجوب الشوارع. كثر الوشاة، الجميع يحتاطون من الغرباء ونحن كنا عائلة وافدة وغريبة .

أشغال البيت تغيرت، وأصبحت أكثر تعقيدا وإلزاما بالتنظيف. اختفت حلل الطين وصواني الخيزران. الطبخ والتسوق لم يعد من واجبات والدتي فقط. لأنها كانت تتوه بمجرد أن تخطو خارج البيت. امرأة تعودت على قرية صغيرة، وعائلات معروفة، وأزقة ككف اليد. ضاعت وسط مدينة كبيرة .

حاولتْ والدتي الخروج مرات، لكنها في الأخير استكانت إلى وحدتها في البيت. لم تستطع أن تتكيف مع جو المدينة أو أن تجد لها صديقة .

في الحقيقة لم أكن أعرف كيف كانت أمي تصرف يومها حين انتقلنا إلى مدينة نانجينغ، فقد كنت منشغلة بنفسي وبأحلام الرحيل. لا أتذكرها إلا في السنوات التي عشناها كعائلة قروية، وفي الشهور التي قضيناها متنقلين بين القرى الجبلية .

والدي استعاد علاقته بالتربة بالاشتغال في حديقة بيت أحد الأغنياء. لا يعود إلا في المساء، بعد أن يمر بأحد خانات الأفيون. جسده أصبح هزيلا، وروحه منكسرة، ليس من الحرب أو فقدان قطعة الأرض، بل كان غياب يونغ، الضربة التي كسرت روحه. تساقط شعر رأسه،

وأصبح يشتكي من البرد على جمجمته. عاد ذات مساء وهو يعتمر قبعة جندي صيني، وجدها في الطريق، نفس القبعة التي كانت سببا في موته بعد شهور، حين صادفته دورية عسكر يابانية، تمشط الأزقة والشوارع، واعتقدوا أنه من المقاتلين المتخفين وسط المدنيين. لم يقتل بالرصاص، إنما قطع رأسه بالسيف . تلك اللعبة المفضلة للعساكر اليابانيين في قتل العُزَّل .

والدي لم يحك الكثير، طيلة حياته، عن عائلته الكبيرة. كل الكلام الذي وصلني عن الأعمام، كان من فم الجدة. ظل بمنأى عن العائلة وعن الناس، وحصنا منيعا عما يجري من حوله من أحداث. كانت له ملامح ثابتة لا تتغير، في الغضب وفي الفرح. لم أره يبتسم أو يبكي يوما . لا أذكر، ولا مرة، أنه وضع يده على رأسي أو هدهدني أو فرح بإبداع حققته في التطريز. لم يسألني يوما عن دراستي ولا عن كيف حصلت على العمل في نانجينغ . كانت له مودة لجُينْ مَيْ. مودة
لا يعبر عنها بالكلام ولا بالأفعال. لم أره يوما يلمس أمي أو يكلمها كلاما مباشرا. كنا نساء والنساء لهن كلام المطبخ . وكنا أنا وجُينْ مَيْ صبيتين، لا يعرف كيفية التخلص من عبئهما.. أظن أنه كان لا يرى في العائلة سوى أخي يونغ، رغم كل المشاكل التي جلبها للأسرة وهو صغير وانحرافه وهو كبير. حتى بت أعتقد أن والدي، في داخله، يؤمن بأن كل ما كان يفعله يونغ، حتى قتل الأبرياء، كان من شيم الرجال .

بعد موت الوالد، أصبحنا في العراء. ثلاث نساء ضائعات في مدينة كبيرة وحرب طاحنة . لكنني في داخلي أحسست بأن حجرا انزاح من طريقي نحو الحرية .

قرية جسر تْشو لانْغ.. صيف 1937

في الليلة التي وقف فيها اليابانيون على مشارف القرية. اختفى أخي يونغ من حياتنا وإلى الأبد. والدي همس لأمي أن يونغ التحق بالمقاومة. منذ حينها، لم يعد والدي يشاركنا وجبات الطعام
ولا الجلسات المسائية. تصعد إليه والدتي بصينية الطعام، ويأكل وحده على حافة السرير الحجري .

عكس أمي، لم يصدق والدي موت يونغ، حتى حين أخبره ابن الجيران بأنه طعن من الخلف ودفن في الغابة.. لم يصدق ذلك ولم يتقبل التعازي، لأن الموت يلزمه جثة وطقوس .

لم نحزن أنا وقوتْشينْ لرحيله . كان رعبا وانزاح عن صدورنا. الغريب في الأمر أن أمي، ورغم ارتدائها للملابس البيضاء، لم تبد حزنا كافيا، أو تذرف دمعا يليق بموت ابن. لم تذكر اسمه على طرف لسانها إلا في أواخر عمرها. حين أصابها الخرف، بدأت تفتح صفحات الماضي دون ترتيب. من إحدى الصفحات أخبرتني أن يونغ لم يكن من رحمها. كان ثمرة خطيئة بين أبي وامرأة لم تعرف عنها إلا أنها تسكن المدينة. بعد اختفائه ثلاثة أسابيع، عاد أبي من المدينة يحمل رضيعا في قماط، وضعه في حضنها، وأقنعها أن الآلهة والأسلاف بعثت به تعويضا عن عدم إنجابها .

لم تقتنع والدتي، لكنها قبلت به مرغمة وأغلقت فمها . فقد كانت مدينة للزوج، لأنها لم تنجب له أولادا، وقد مضت سنتان على زواجهما. لم يكن من حق المرأة أن تصدر أنَّة الوجع. منذ الصغر يربون الإناث على الصمت، وإن تكلمن فعليهن خفض الصوت، لأن الصوت المنخفض جزء من جمال المرأة ودليل على أخلاقها العالية. صمت المرأة ميزة توزن بالذهب .

حبلت أمي بعد سنوات ووضعت توأمًا، مولودتين. خابت أمانيها في إنجاب ولد. وانتهت إلى التعايش مع ذكرى امرأة مجهولة، ذكرى ساعدت على توازن زواجها البارد. وعلى مضض، ظلت تفتخر أمام القرية والعائلة أنها والدة ذلك الولد القوي الذي يصطاد أضخم السمكات بلا شباك ويهابه أولاد القرية .

يُونُغْ كان ذا بشرة داكنة مقارنة بوالدي. كثيرا ما لمّحت قوتْشينْ لذلك، فكانت أمي تبرر بأن بشرته مدبوغة بأشعة الشمس التي يتعرض لها في الخلاء. واستمرت بالافتخار به حتى حين بدأت مشاكله .

ترك المدرسة في الصف الثالث. وباستمرار، كان يسرق البيض من خم الدجاج. بدل أن يرافق والدي إلى الحقل كان يونغ يسرح في الحقول المجاورة ليصطاد عصافير الدوري ويعلقها من عنقها بخيط الحرير، يسرقه كذلك من علبة أدوات التطريز التي تخصني أنا وقوتْشينْ. ثم يجلس تحت الشجرة ليراقب العصفور وهو يصارع

الموت. تلك الرغبة في القتل التي ستعمقها الحرب فيما بعد، ليصبح أكثر شراسة وأكثر تعطشا للدم، كبعض شباب القرية الذين تحولوا إلى قتلة بذريعة الحرب. لم تكن حربا عادية، بساحات معارك ومواجهات. اليابانيون يقصفون المدنيين بالطائرات، وشباب القرية ينصبون كمائن لاصطياد اليابانيين، كما كانوا يصطادون الحيوانات وهم صغار .

انخرط يونغ في جماعة من الشبان الأكبر منه.
لإصلاحه، كان والدي يشده من قفاه ويجره، ثم يأمره بالانبطاح على مقعد خشبي مستطيل، يعري مؤخرته، ثم يبدأ في ضربه بعصى الخيزران المخصصة للعقاب. كان هذا المشهد يتكرر باستمرار في باحة البيت، إلى أن كلت يد والدي تدريجيا فبدأ يتغاضى عن شغب يونغ. وكف عن مطالبته بمرافقته للعمل في الحقل. وساد البيت هدوء حذر .

حين أصبح يافعا انضم لشرذمة الخارجين عن القانون من شباب القرية .

- يُونْغْ كان الشيطان بعينه .

تمتمت أمي بوهن وهي تهلوس :

- أنت الوحيدة في هذه العائلة التي نفخ فيك بوذا بعضا من طيبته وحكمته. ووهب روحك السكينة. لم تُتعبني

تربيتك. كنت العذراء الوحيدة في البيت وشفيعتنا أمام الآلهة .

الحقيقة التي غابت عن أمي، أن عائلتنا أخذت حصة أكبر من شرور العالم.. أنا كذلك لم أكن عذراء يوم زفافي. لم يلمسني رجل قبل زوجي، ومع ذلك لم أكن عذراء يوم الدخلة. ولا تفسير لي. زوجي لم يسأل، لم يُبالِ، حتى وإن سأل فلم يكن لدي مبرر مقنع .

لماذا لم تذكر والدتي قوتْشينْ وهي تصنف الخير والشر في العائلة؟ هل كانت تعرف ما أعرفه أنا عن قوتْشينْ؟ لم أجرؤ حينها على سؤالها، فقد كانت قد دخلت غيبوبة ما قبل الموت .

لكن المؤكد أنها أحبت يونغ وفضلته عنا. ففي يقظاتها الليلية المتكررة تزحف خارج الفراش، تتجه نحو باب الغرفة وهي تتعثر في الأثاث وتنادي :

«من في الفناء؟ هل عدت يا يونغ؟ ادخل لن أعاقبك على سرقة البيض.. ادخل يا بني البرد قارس في الخارج ».

تعود للفراش وهي تتمتم بكلمات مبهمة، لكنها محملة بحنان أمومة .

ثم انطفأت تلك المرأة الصامتة والغامضة، وهي كومة عظام بين يدي. كان والدي قد مات ويُونْغْ مفقود

وقوتْشينْ في الفيتنام .

تذكرت قولة طالما كررتها، وهي تحكي عن حملها والمخاض المؤلم الذي استمر ثلاثة أيام :

- كما العالم المقسم بين الخير والشر، كان بطني المنتفخ. كانت جْينْ مَيْ قسمة الخير وقوتْشينْ قسمة الشر .

هل كانت أمي تعلم عن الشيطان الذي كان يسكن جسد أختي؟

نانجينغ.. شتاء 1939

مع مطلع 1939 ، بدأ سكان المدينة في العودة إلى منازلهم أو ما تبقى من منازلهم. وبدأت حركة اقتصادية خجولة ومتوجسة. وبدأت أحلامي أنا كذلك تتخذ مكانها في الواقع .

تبلور الهدف بوضوح، عبور البحر، حين التقيت السيد كلود باريير في محل لبيع الأحذية، حيث كنت أشتغل في انتظار تحقق حلم الرحيل .

رأيته يتفحصني من خلف زجاج المحل، قبل أن يدخل ويتقدم نحوي، ويطلب مني أن أقيس حذاء يريد أن يشتريه لزوجته. أصر على أن مقاس رجلي، هو نفس مقاس رجل الزوجة. نظر إليّ صاحب المحل نظرة تشجيع وترهيب، أجْلسَتْني على الفور. انحنى الزبون على ركبتيه وربط خيوط الحذاء ثم تفحصه وسألني، وهو يلمس كاحلي بخفة ودربة غير مرئيتين، إن كان الحذاء مريحا. حَنَيْتُ رأسي بالإيجاب. ابتسم لي صاحب المحل .

بينما كنت ألف الحذاء في علبة. سألني الزبون هامسا عن الساعة التي أنهي فيها عملي. ارتبكت، ودون تفكير أجبت: الساعة السادسة مساء .

السادسة بالضبط، وجدته ينتظرني على الرصيف المقابل في سيارة من صنع ألماني. دون مقدمات ولا تكلف، اقترح عليّ أن أكون مربية لأطفاله، بوعد منه أن يأخذني إلى فرنسا حين ينهي تجارته في الصين .

وكأنه رأى حلمي في عيني :

- أنا لا أعرض عليك عملا، بل أعرض عليك حياة .

لكنني فهمت، ودون عناء في التفكير، أنه يريدني مربية للأولاد في النهار وعشيقته في الليل .

لا أعرف كيف أثرت إعجابه، ففي تلك الفترة، كنا نحن النساء، نرتدي الملابس الخشنة والفضفاضة والرثة، ونحرص على ألا نبدي شيئا من جمالنا وزينتنا في الشوارع، حتى لا نتعرض للاختطاف من اليابانيين، ونُجند كنساء للمتعة في جيشهم الذي فك قبضته عن نانجينغ وتقدم غربا نحو مدن أخرى . كما كانت بيوت الأوروبيين محصنة ضد اليابانيين، خصوصا الحلفاء منهم، فوجدت في اقتراح الرجل الفرنسي مهربا من الاختطاف والاغتصاب الجماعي .

منذ الليلة الأولى، وبعد أن صعدت زوجته إلى غرفتها ونام الأطفال، تسلل السيد باريير إلى الأسفل، حيث غرف الخدم، ودخل غرفتي. لم أكن أحبه، بل لم أكن أطيق أنفاسه. الحقيقة أنني لم أحب أحدا بعد حبيبي

المقاتل. لم أعد أرى في الرجال، سوى مراكب تعبر بي البحر إلى أوروبا. منذ صغري وأنا لا أعطي إلا إذا كنت أضمن ما سآخذه بالمقابل. حتى وأنا طفلة، كنت أتصيد من الفصل من معه المزيد من حلوى الأرز لأساومه على قبلة. هكذا تعلمت فنون التقبيل وأساليب الإغراء مبكرًا .

السيد باريير كان يتاجر في الأسلحة . رجل غني أغرقني بالهدايا، مع الحرص الشديد، دائما، على إخفائها عن زوجته. كما حثني على تعلم اللغة الفرنسية، ليبرهن على حسن نيته في ترحيلي إلى فرنسا مع العائلة، لأنني أجمل امرأة صادفها في حياته .

هل كانت السيدة باريير على علم بعلاقتي بزوجها؟ هذا ما كنت أستبعده أول الأمر، إلى أن طلبت مني الطاهية ذات يوم أن أحمل صينية الشاي إلى غرفة السيدة في الطابق العلوي. أخبرتني أن السيدة متوعكة، واضطرت لاستقبال محاسب السيد باريير في غرفتها لمهام مستعجلة، وأكدت عليّ أن أطرق الباب، وأنتظر حتى تأذن لي السيدة بالدخول .

لكنني، وعن قصد، لم أتبع تعليمات الطاهية، فوجدت المحاسب الفرنسي في سرير السيدة. ارتبكتُ. كدت أن أسقط صينية الشاي من يدي . فبادرتني السيدة ساخرة :

- لا عليك، في العائلات الفرنسية الكبيرة، حين تنتهي الزوجة من إنجاب ما اتفق عليه من أبناء، يصبح جسدها ملكا لها تفعل به ما تشاء، وينظر المجتمع المخملي إلى نزواتها باستحقاق. أما الزوج فله الحق في ذلك على الدوام. وغمزت ملمحة إلى جسدي .

غادرت الغرفة وأنا أتعثر في تلابيبي، والغضب يغلي في داخلي. ليس غضبا على تصرف السيدة، وإنما على السيد باريير .

في تلك اللحظة بالذات، بدأت أشك في نواياه. فإذا كانت الزوجة تعلم بعلاقتي بالزوج، والزوج يتغاضى عن مغامرات زوجته، إذًا فهناك اتفاق بينهما، ولستُ العشيقة الأولى أو الأخيرة في حياته. وأن حبه لي ليس سوى نزوة من نزواته التي ستنتهي قريبا .

أحسست بالغبن، وغضبت من غبائي الذي صور لي أن هذا الرجل مغرم بي، وسيترك زوجته في يوم من الأيام ويختارني .

هدأت نفسي. ثم ماذا بعد؟ المهم هو أن يعبر بي إلى القارة الأخرى، وبعد ذلك سأتصرف. فلدي من الجمال ما يغري رجالا آخرين. ولِمَ لا أفترض أن علاقتي بتاجر سلاح هي مهمة وطنية. فكل ساعة يقضيها هذا الرجل في سريري، ستنقذ مئات الصينيين من الموت بأسلحته. كان لا يتوقف عن عقد صفقات الموت .

لضمان استمرار العلاقة، عقدت الأمل على فتوتي
وألعابي السريرية، التي كان السيد باربير يقسم بأنه ما
عرف امرأة أبرع مني فيها .

أعترف الآن، أنه منذ دخلت هذه العلاقة، كانت كل
المنافذ مغلقة. أنا التي كنت عمياء .

حينها كانت حرب الأسرَّة إلى جانب حرب الشوارع، فقد
كانت
لا تزال هناك دوريات للجيش تجوب شوارع نانجينغ
وتقتل الأبرياء .

قرية جسر تْشو لانْغْ.. شتاء 1937

قوتْشينْ كانت شخصية عنيدة ومتمردة، لكنها كانت تحمل قناعا تغيره حسب الظروف، كأقنعة الممثلين على مسرح النو. كانت باهرة في القص والإقناع، تنوع في قصصها وحكاياتها عن الأشباح التي تحوم حول البيت ...

لم ترغب يوما في الذهاب إلى المعبد، أو المشاركة في تنظيف مقابر الأسلاف، وتقديم القرابين والصلاة، ولا حتى المشاركة في احتفالية أولامبانا، اليوم الذي تفتح فيه أبواب العالم الآخر، ليزور الموتى أقرباءَهم الأحياء .

كانت لها قدرة ابتكار الحجج والذرائع، كألم الضروس، أو ارتفاع الحرارة، أو وجع العادة الشهرية، وبوقاحة تطلب من والدتي أن تغلي لها أوراق الصفصاف كمنقوع لتخفيف الآلام.. المهم، هو أن تغنم بعض الساعات للذهاب إلى ضفة النهر الكبير الذي يبعد مسافة ربع ساعة مشيا على الأقدام، فمن الممكن أن نراه حين نصعد الجبل خلف البيت إذا كان الجو صحوا .

مباشرة بعد توجه الجميع إلى المعبد في وسط القرية . ترتدي قوتْشينْ فستان الأعياد والحذاء الوحيد الذي لا نلبسه إلا للذهاب إلى المعبد أو إلى المدرسة، فباقي الأوقات كنا نرتدي قميصا بنيا بياقة مرتفعة وسروالا

أسود وخفين خشبيين. تتأنق وتتسلل من الباب الخلفي للبيت .

ما الذي كانت تفعله قوتْشينْ قرب النهر؟

أنا كنت أكره الذهاب إلى النهر الكبير . حين تصحو السماء وتشرق الشمس تأخذنا أمي إلى هناك، محملين بالأغطية والألحفة السميكة لغسلها. نبللها ثم نسكب عليها المسحوق وندعكها بين أرجلنا الصغيرة على حجر مصقول نختاره بعناية من جانب النهر. يحدث أحيانا أن نجد جثة أو أكثر طافية فوق سطح الماء. لا نُفَاجَأ، نبتعد مسافة ونستأنف الغسيل. بينما القوارب الصغيرة المسقوفة، تسبح هادئة بهدوء انسياب الماء المتجه نحو المنحدر ليشكل شلالا غير بعيد عن القرية .

في السادسة عشر، لم تعد تلك الزيارات الخاطفة لضفة النهر، من مناسبة إلى أخرى تكفي قوتْشينْ. في بعض الليالي وحين يكون يونغ غائبا عن البيت، تتسحب قوتْشينْ من سريرها وهي تحمل الحذاء في يدها وتغادر خلسة .

بداية الغزو، أخبرتني قوتْشينْ عن عدو من نوع آخر أكثر خطورة من العسكري الياباني، اسمه الجن. وأنا صغيرة كانت حكاياتها تلك تجعلني أتبول في فراشي تحت عنف الكوابيس. وحين أخذ مني الخوف مكانا، اقترحت عليّ كحماية لي، تبادل فراشينا، بحجة أنه من

السهل على الجني أن يدخل من النافذة الصغيرة بجانب فراشي . وجدت في اقتراحها عطفا وعناية أخت بأختها، لأدرك فيما بعد أنه باقتراحها ستضرب عصفورين بحجر واحد: ستكون قريبة من النافذة لتقفز منها إلى الخارج، وفي نفس الوقت إذا صادف ودخل يونغ إلى الغرفة سيلاحظ غيابي لا غيابها، فيُونْغْ كان يخلط بيننا في بعض الأحيان .

النافذة كانت تطل على خم الدجاج. فكان يلزمها الكثير من الحذر كي لا تدوس على دجاجة أو بطة ويستيقظ الكلب، أو تسقط أكواز الذرة وأشرطة الثوم المعلقة في السقف، فيستيقظ من في البيت .

بدأت أعرف مواعيد تسللها بدقة، بعد العشاء، وعلى غير العادة تحمل دلوا من الماء الساخن إلى المرحاض، الذي هو في نفس الوقت للاستحمام، وتغسل أطرافها، تجفف جسدها بفوطة نظيفة. ترتدي فستانها وتندس في الفراش، رافعة الغطاء إلى مستوى العنق كي لا تلاحظ والدتي أنها تنام بفستان المناسبات، وتشك في أمرها. بطبيعة الحال كانت تستعمل تلك الثواني التي فصلت بين ولادتينا لتفرض عليّ الصمت. كنت أحب أختي، حتى ولو لم تطلب مني ذلك ما كنت أشي بها وأحرمها متعة تأمل النهر ليلا تحت ضوء القمر. هذا ما كانت تخبرني به. غير أن قطع الشوكولاتة التي كنا نتذوقها على مهل ونحن في طريقنا إلى المدرسة بدأت

تتكاثر في جيب مريلة قوتْشينْ. وأوراق التغليف المذهبة التي كنا نلصقها بأسناننا، لتبدو كأسنان حارسة المعبد، بدأت تتكدس تحت اللحاف والحصير .

- وجدتها في طريق النهر... ربما سقطت من جيب أحدهم .

أو :

- جارتنا أعطتها لي مقابل سقي دلو ماء .

في كل مرة كانت تخبرني قصة مختلفة عن قطع الشوكولاتة وتحذرني :

- إن عرف أبي بهذا سيغضب كثيرا، لأنها صناعة يابانية، وهي معجونة بدم يونغ، سيضربنا حتى الموت .

بعد أن أُتخمت من الشوكولاتة، استبد بي الشك وألحت عليّ الأسئلة. ذات ليلة تبعت خطوات «قوتْشينْ». لم يكن ذلك سهلا، فقد كانت تختار أشدّ المسالك عتمةً ووحلًا اختصارا للطريق وابتعادا عن الناس. غاصت رجلاي أكثر من مرة في الوحل، علق شعري مرات في أغصان غير مرئية. تبللت ثيابي. استحوذ عليّ الخوف. كان الطريق يحاذي مقبرة المعبد .

- هل يستحق تأمل النهر تحت ضوء القمر كل هذا التعب؟

قبل بلوغ النهر، انعطفت قوتْشينْ يسارا نحو برج المراقبة المقام حديثا على جانب الجسر، ممَّن وصل من الجيش الياباني، وعلى مرفأ صغير تعبر منه المراكب التي تحمل محاصيل الحقول المجاورة إلى المدينة، وفيالق الجيش الياباني المتمركزة في القرية. كان يلزمني جهد أكثر من قوتْشينْ للوصول إلى المرفأ، جسدي كان ثقيلا مقارنة بخفة جسدها .

التزمت مسافة معقولة كي لا تكشفني قوتْشينْ أو العسكري المداوم على البرج الخشبي. تسلقتْ بعض الدرجات، فعلتُ مثلها ...

حدقت مليًّا. كتمت صرخة كادت تخرج من بين شفتي المثلجتين بالبرد. كانت قوتْشينْ تقف عارية تماما فوق البرج، ظهرها للنهر ووجهها للسقيفة، حيث العسكري الياباني المداوم يحمل رشاشا. كانت تستدير بحركات بطيئة ومدروسة، مغيرة موقعها تحت ضوء القمر. بدت بجسدها المتناسق الاستدارات وشعرها الطويل المسترسل على ظهرها كقطعة من القمر نفسه .

لم يكن لي وعي وطني . لا أعرف مما يجري حولي سوى ما يلفظه النهر من جثث، لا أعرف مَنْ ضدَّ مَنْ، ولا من مع من. لكنني أعرف أن العسكري الياباني هو عدو أخي يونغ، أو ربما هو قاتله .

أحسست بالخجل لأن الذي يستمتع بهذا الجمال هو عدوّ أخي .

في البيت، واجهت قوتْشينْ، وأنا أبكي، بحقيقة قطع الشوكولاتة، وسألتها إن كان هذا هو سبب رفضها لمرافقتنا ودخول المعبد، لأنها ليست عذراء. نهرتني ودفعتني في صدري. لأول مرة تعنفني أختي بهذا الشكل .

- هل جننت، يا لك من بلهاء، أتظنين أنني سأتركه يلمسني مقابل قطعة شوكولاتة، كان يتأمل جسدي فقط، ويتكفل بنفسه .

بصقتْ على الحصير باشمئزاز .

رغم ما أمثله من سذاجة بين أفراد الأسرة، لكنني وقتها أدركت أن قوتْشينْ لم تكن غاضبة من معرفتي بعلاقتها بالأجنبي، أكثر مما شعرت بالإهانة لعدم قدرتي على تثمين جسدها، كما أدركت أن التهديد بفضحها أمام والدي لن يثنيها على ما هي منخرطة فيه .

في تلك اللحظة افتقدت أخي يونغ .

منذ حينها صرت أتبعها كلما خرجت ليلا، ليس للتجسس عليها ولكن لحمايتها، فالكابوس الذي أصبح يراودني، زرع الرعب في ليلي. في الحلم، أرى المشهد نفسه الذي رأيته في الليلة الأولى. لكن الصورة تتسع أكثر، فأرى

العسكري يستمني بيد، وبيد أخرى يصوب بندقيته إلى جسد أختي العاري، في اللحظة التي يقذف فيها، يفرغ الرصاص في صدرها، ويسقط جسدها من أعلى البرج إلى النهر. أستيقظ مفزوعة على صوت ارتطام الجسد بالماء .

اكتشفتُ أن العسكري الياباني لم يكن الموعد الليلي الوحيد لأختي، فقد كانت تواعد شخصا آخر. ذات يوم غادرت البيت وسلكت طريقها المعتاد. عند مشارف النهر، وبدل أن تنعطف يسارا نحو البرج، انعرجت يمينًا، تجاوزت المقبرة إلى المعبد واختفت وراء شجرة الجنكة الضخمة. وقفت ساعة أو أكثر وأنا أنتظر عودتها. لم أتجرأ على السير وراءها، فليس من اللائق إزعاج الموتى في الليل .

عادت من نفس الطريق دون أن تلتفت إلى البرج .

بدأت أجد صعوبة في الاستيقاظ صباحا للذهاب إلى المدرسة أنا التي عرفت بالانضباط. لاحظت أمي هالات سوداء تحت جفني واصفرار حدقتي. عكس قوتْشينْ التي كانت تستيقظ نشطة موردة الوجنتين، كأنها نامت دهرا، تشرع بالغناء. وحين أحدجها بنظرتي المتهمة، تبتسم في وجهي وتخرج لي لسانها بتحد .

لم أعد أتحمل مغامرات قوتْشينْ، في كل مرة أقرر أن أدعها ومصيرها، ولن أتدخل في القدر. لكن قلبي لم

يطاوعني، كانت الشيطان وكنت الملاك الذي يحرسها..
إلى أن كانت ذات ليلة، خرجت قوتْشينْ من البيت
وسلكت طريقها المعتم كالعادة، تبعتها عبر حقول الذرة
أو ما تبقى من قصب الذرة المحروقة.. رائحة الجثث
المتعفنة تصل مع ريح الشمال القوية.. أكتم عطسة في
اللحظة المناسبة.. أخفف وَطْءَ أقدامي حتى لا يصل
صوت خشخشة العشب إلى مسمع قوتْشينْ فقد كانت
لها حاسة سمع حادة تستطيع أن تسمع الأصوات
وتميزها على مسافة بعيدة وتقرأ كلام الشفاه. من أين
جاءت بهذه النباهة غير العادية والتي تفتقدها على
مقاعد الدراسة؟ انعطفت قوتْشينْ يمينا نحو المعبد،
لكنها لم تتأخر كالعادة. بل عادت بسرعة، وبدل أن تتّخذ
طريق العودة إلى البيت، سارت باتجاه البرج .

أفلت كعباي من الحذاء. غاصت رجلي اليمنى في
الطين، أخرجتها بصعوبة ففاصت اليسرى. خمنت أنني
لست بعيدة عن بالوعة الطمي التي لا ينجو منها الرجال
الأقوياء، وبالأحرى صبية في مثل سني ..

بدأت قوتْشينْ في استعراض مفاتنها للعسكري نزعت
عنها ثيابها كالمعتاد. ليلتها لم يكن القمر مكتملا. لم أرَ
وجه العسكري بوضوح، لكنني كنت أستطيع أن أرى
حبات من العرق أو الماء تنزل من الظهر اللامع لقوتْشينْ
ككريات من بلور .

فجأة تسلل شبح من وراء البرج، قفز مباغتا العسكري ونحره في رمشة عين، ثم قفز إلى النهر. كل شيء مر بصمت، لولا حشرجة خافتة صدرت من القتيل. وبهدوء ولا مبالاة ارتدت قوتْشينْ فستانها، جمعت شعرها بالمشبك العاجي على شكل ذيل حصان، أخذت علبة كاملة من الشوكولاتة من جيب الجثة، ونزلت من أعلى البرج بهدوء .

من شدة الصدمة، لم أستطع التحرك من مخبئي. تخشبت رجلاي. شعرت بمعدتي تتلوى، وقئت على ثيابي. قبل أن أغيب عن الوعي كانت ثمة يد توضع على كتفي وتسحبني بعيدا .

لم أعد إلى البيت على رجلي . أحد ما سحبني في الوحل حتى سريري .

استيقظت صباحا على غناء قوتْشينْ القادم من الحمام، وصوت ارتطام الماء بالأرض .

كانت حرارتي مرتفعة، فلازمت يومها السرير طول النهار. صباح اليوم التالي، بينما كنا ذاهبتين إلى المدرسة، سحبت قوتْشينْ علبة شوكولاتة كاملة من حقيبتها مثل طفلة بريئة، وعلى غير العادة، فتحتها ودعتني لاختيار القطعة التي أريد. هي التي كانت تفرض عليّ قطعة بنكهة الفانيلا لأنها لا تستطعمها .

دون أن أنظر في عينيها تناولت واحدة، كانت مُرة. قدمت لي أخرى فكانت أمرّ. كانت آخر مرة آكل فيها شوكولاتة. عفتها وبت أتوجس من أي أحد يهديني إياها .

طيلة ساعات الدرس لم أركز فيما كانت تقوله المعلمة. قلبت بعقلي الصغير أحداث الأمس. حاولت أن أفهم ما حدث، وأن أفهم أختي بالذات. في أي جهة كانت؟ وأي لعبة كانت تلعب مع العسكري؟ هل القاتل كان هو نفسه شبح مقبرة المعبد؟

قبل أن ننام تلك الليلة، بادرت أختي بالسؤال :

- إلى أية جهة تنتمين، هل لجهة قاتل أخي، أم لجهة قاتل العسكري؟

نهرتني :

- نامي، وانسي ما رأيت ليلة أمس، في الحرب لا ننتمي إلا لأنفسنا .

أحببت أختي كثيرا، لهذا لم أكن أعجز عن إيجاد مبررات لشيطنتها ومسامحتها .

لكن ما أدركته، وأنا كبيرة، أن الحرب أفسدت مُيُول قوتْشينْ، وأزَّمت نفسيتها، وبدأت تستمتع بممارسة الحب تحت القصف، والمواعدة تحت وابل من القذائف،

رفقة جنود عابرين وتائهين،
لا يعرفون، هم كذلك، لماذا يحاربون .

الفيتنام.. شتاء 1947

أصدر لي تاجر السلاح الفرنسي وثائق جديدة وجواز سفر. احتفظ فقط باسمي الشخصي قوتْشينْ بإلحاح مني. وغيَّر لقبي ومكان ولادتي، ووضع في خانة الديانة مسيحية. هذه الديانة التي ستغلق دوني أبوابا، وستفتح لي أخرى في المستقبل، أقلها النوم والأكل في أديرة الكنائس، حين دخلت مرحلة الضياع والتشرد. كان الرجل نافذا، لو أراد لأصدر لي جواز سفر باسم مجهول. كان يناديني وأبناؤه الصغار بنيكول .

على كل حال لم يعد الاسم مهما لي فيما بعد، لأنني أنا نفسي ابتعدت عن اسمي وجذوري لكثرة ما انتحلت من أسماء لإغواء الزبائن أو للإفلات من البوليس الفيتنامي .

السيد باريير كان تاجر سلاح. يتتبع خريطة الحروب ويشم رائحة الدم من بعيد، وقبل سنوات من حدوث المعارك. يقتات من الموت ككل أثرياء الحرب. يتغيب عن البيت أسابيع، فلا تبدي السيدة باريير أي قلق لغيابه. كان يسافر كثيرا إلى ألمانيا ليشرف بنفسه على شحن الأسلحة التي تبعث عبر الباخرة إلى ساحات المعارك. لا يعلن عن تاريخ سفره ولا عن يوم عودته. لديه أكثر من جواز سفر وأكثر من هوية. كانت أسفاره تطلق العنان لمخيلتي الخرقاء، أنا التي كنت دائمة

العطش ولا أرتوي، أريد أن أرى بلدانا مختلفة وأناسا مختلفين من جنسيات أخرى .

لم يأت السيد باريير إلى هذه المهنة مصادفةً. كانت تجارة السلاح مهنة والده، ومن قبل مهنة جده. لهذا كان يتاجر في الأسلحة كما يتاجر في الآلات المنزلية، دون شعور بالذنب. ويراكم أرصدته المالية في البنوك الأوروبية. كل ما يتعلق بالحرب كان من اختصاصه. حتى الأسلحة المستعملة يعيد بيعها بشكل أو بآخر، بحجة استعمالها مدنيا . كان أول من أدخل بندقية كيڒبانيڒ الألمانية الصنع إلى المنطقة .

أثناء جلسات الشراب الحميمة، يتباهى أمام ضيوفه بذكائه : «المهم أن يعرف تاجر السلاح كيف يبيع بضاعته قبل إبرام معاهدات السلام، وهذا يلزمه حدس قوي مثل حدسي ». كان يتبجح أمام أصدقائه وهم يسكرون في صالون البيت. ولا يتردد في تبرير تجارته، باعتبار أنه يبيع السلاح لمن يحتاجونه للدفاع عن أنفسهم وأوطانهم ومصالحهم. وأن مهنة بائع السلاح لا تختلف عن مهنة منظف الجثث. هما مهنتان قذرتان لكنهما ضروريتان .

ليس هناك حرب محترمة، يكرر على مسامع الضيوف، إن لم يتاجر هو بالسلاح، سيفعل آخرون. وأنه، هو شخصيا، لم يقتل
ولا مرة في حياته. كان صادقا في ادعائه الأخير، فهو

كان له جبن وخوف داخليان يظهران جليا في هلوساته وكوابيسه المتكررة أثناء نومه . لا ينام إلا بالمنومات .

في مطلع سنة 1946 ، كانت حرب الأعداء قد أشرفت على نهايتها لتبدأ حرب الإخوة. اشتم السيد باريير رائحة حرب أخرى في الجوار وحزم أمتعته للرحيل إلى البلد المجاور الفيتنام .

بعد إقناع والدتي، بمساعدة جُينْ مَيْ، بأنني سأرافق عائلة السيد إلى باريس كمربية لأطفاله الثلاثة، وسأبعث بالنقود لتحسين دخل العائلة، وربما ستتاح لي الفرصة لمتابعة دراستي، رحلت مع الأسرة الفرنسية إلى الفيتنام كمرحلة انتقالية، قبل الرحيل إلى فرنسا، وهو ما كان ضمن الاتفاق .

حينها كنت قد بدأت أحفظ بعض الجمل الفرنسية من خلال كلامي مع أفراد الأسرة، ومن الكتب التي كان يهديها لي السيد، لتحسين تواصلي مع الأولاد .

عشتُ أنا وعائلة السيد باريير في سايغون، فترة مستقرة إلى حد ما. فقد كانت الحرب بعيدة عنا، ومعظم الأحداث تركزت في الشمال وفي أطراف أخرى، لا تصلنا إلا عبر الجرائد والأخبار المتفرقة. مع استثناء بعض أعمال التخريب، بين الفينة والأخرى، ضد مكاتب ومحلات الفرنسيين، كإشارة إلى عدم الترحيب بوجودهم، أو كتابات على الجدران تدعو لسقوط فرنسا.

حتى تحركات العسكر تكاد
لا تلاحظ في الشوارع، يتنقلون عبر شاحنات مغطاة بالبلاستيك الأخضر السميك .

سايغون كانت حينها هي باريس الشرق بمعالمها الأوروبية. البيوت المزخرفة بالجص، وسقوف القرميد الأحمر، الشرفات المزينة بالتماثيل الرخامية. الفنادق الفاخرة. السيارات المكشوفة. الرجال بالسراويل القصيرة، والنساء بالفساتين الأنيقة، يتجولون بحرية على الدراجات الهوائية .. الواجهات الزجاجية للمطاعم والمقاهي الأنيقة. المخابز العصرية. المحلات التي تعرض آخر صيحات الموضة الفرنسية .

عشت حلما جميلا بانتقالي من مدينة نانجينغ المدمرة إلى لؤلؤة الشرق .

لم أتردد في أن أغير من لباسي بشراء فساتين تجمع بين الشكل الفيتنامي والفرنسي، وقبعة من القش أعتمرها في الحفلات والولائم التي تقيمها السيدة باريير بمناسبة أو بدونها، لخطب ود المجتمع الفرنسي الراقي. تماشيا مع هيئتي الجديدة، أسرعت في صقل فرنسيتي بالقراءة والتمرن عليها في الأسواق والمتاجر. في بعض الأحيان أخفي أصولي الصينية ولا أتكلم مع البائع إلا بالفرنسية
وأتعمد أن أدس بين جملة وأخرى كلمات إنجليزية، لأشعر مخاطبي بأهميتي .

في طريقي إلى السوق لا أتردد في إلقاء التحية بالفرنسية على شرطي المرور بسرواله القصير وبندقية الظهر. ولكي أطيل الحديث معه أسأله عن اتجاه أعرفه مسبقا. أشكره، أبتسم له بغنج وألوح بيدي بأناقة السيدات الفرنسيات .

سايغون عرفت في تلك الفترة توافد بعض الخبراء العسكريين الأمريكيين واستقطبت أثرياء العالم من تجار الحرب. كما أصبحت وجهة للفيتناميين الشماليين المقربين من الغرب والمعادين للشيوعية .

أعجبني تنوع اللغات والجنسيات. واعتقدت أنني صرت قاب قوسين من حلمي، باريس .

فتنت بموقع المدينة على ضفتي نهر سايغون، أنا مائية الهوى، أينما كان الماء أكون. قضيت صباي على ضفاف نهر اليانغتسي وشربت من مائه. جسدي يشبه نبتة الأرز كلما ازدادت كثافة الماء ازددت نضجا وجمالا .

طرأ تحول كبير على مظهري، لم يعجب السيدة باريير. فتغيرت معاملتها لي. بدأت تثقل عليّ بالكثير من أشغال البيت والمطبخ والتسوق. لم يرافقنا من نانجينغ أحد من الخدم. لكن السيد باريير لم يفرط في المحاسب الفرنسي، الذي انتقل معنا، وأصبحت له غرفة في علية البيت، حتى يوفر عليه مشقة التنقل. أصبحت المسافة

بين غرفته وسرير السيدة ثواني معدودة. بل لم يتردد في طرق غرفتي أنا كذلك .

تحملت مسئولية التسوق، فأصبحت المدينة مثل كف يدي. كان البيت يقع في شارع نيغْوِيانْ هْيُو، في الزاوية المطلة على الدوار الرئيسي للمدينة .

منذ البداية، لم يكن من الصعب عليّ أن أصعد الشارع حتى سوق بِنْ تانْهْ لشراء الخضر والفواكه والبهارات، وخاصة الفواكه المجففة والمخللات التي كانت تستهلك كثيرا في جلسات الشراب المسائية. بعد ذلك وسعت خريطة تجوالي حتى شارع كاتِينانْ، لشراء الخبز والهلاليات المحشوة بالشوكولاتة، من المخبزة الفرنسية الوحيدة في ذلك الحي. ربما كانت هناك مخبزة أخرى أقرب في ذلك الحي الفرنسي الراقي. لكنها مسافة ترضي انبهاري وفضولي لاكتشاف المدينة أكثر .

السيد باريير، وبطرقه الخاصة، عرف بقرب نهاية الوجود الفرنسي بالفيتنام. ونهاية الحرب الهندوصينية، مع بداية زحف جيش الشمال، واختفى ذات صباح هو والزوجة والأولاد والمحاسب .

في ذلك الصباح أعطتني السيدة باريير لائحة من الطلبات، وعلى غير العادة، أوصتني أن أشتري السمك من المرفأ، وأن أنتظر دخول مراكب الصيد لأتسوق سمكا طازجا .

رغم أنني كنت أفضل شراء السمك من السوق، لأن ذلك سيعفيني من تنظيفه ونزع القشور. لكنني تبعت أوامر السيدة، لأن جولة كهذه ستبعدني عن أشغال البيت وشغب الأولاد، وستسمح لي بالتجول أطول .

بحماس، صعدت شارع نِيغُوِيانْ هْيُو حتى ساحة لامْ سُونْ. ومشيت طول شارع كاتْينِاتْ حتى المرفأ. مع أنه كان بإمكاني أن أختصر الطريق عبر شارع بُونارْ .

مشيت كل المسافة أتمايل بغنج، بخطى متمهلة، وأنا أحمل شمسية مزركشة وألوح بالتحية لمعارفي من الباعة. فقد أصبحت لي، في وقت قصير، شعبية صغيرة وسط أصحاب الدكاكين ووسط الفرنسيات العجائز، اللواتي كنت أحييهن بأدب بفرنسيتي، وأساعدهن على حمل أغراضهن، أو أعبر بهن الشارع المكتظ بالدراجات النارية والسيارات والشاحنات والعربات المجرورة بالخيول.. في تلك الفترة بالضبط كانت روحي رائقة وسخية تنشر الفرح والبهجة من حولي .

سبق أن قلت، إن من صفات النمر، العلامة التي ولدت تحتها، أنه لا يثق في أحد وليس من السهل خداعه. لكن قراءة برجي لم تكن دقيقة تماما، فقد خُدعت، بل تلقيت أقوى طعنة في الظهر،

لا تنسى، غيرت حياتي. طعنة ممن ادعى حبه وشغفه بي، وقدم لي أكثر من برهان على إخلاصه. فحين عدت من التسوق إلى البيت وجدته فارغا. ووجدت حقيبتي

القصبية، وظرفًا فيه مبلغ من المال سلمه إليّ حارس البيت .

اختفى السيد باريير، كما كان يختفي في باقي رحلاته، في سرية تامة. اعتقدت زمنا أنه غادر نحو فرنسا، وبالضبط إلى باريس، التي أراني صور كنائسها وجسورها، ورسم لي حياة العز والسعادة والحرية بين شوارعها وحاناتها.. لكنني عرفت، فيما بعد، من أحاديث فرنسيين كانوا يتوافدون على الحانة التي اشتغلت بها، أن بائع السلاح الفرنسي التحق هو وأسرته وثروته بأرض الميعاد، فلسطين. فقد كانت الأسرة يهودية .

وبدأت مرحلة أخرى من حياتي عنوانها الضياع .

نانجينغ.. خريف 1938

بعد شهور من التنقل من قرية إلى أخرى وصلنا إلى مدينة نانجينغ متعبين، خائفين، فقراء. في تلك الرحلة الشاقة، فقد والدي شعره وشاب رأس والدتي. هزلنا ودبغت جلودنا، وازداد شحوب والدي ومشاكله التنفسية من أثر تعاطيه للأفيون مدة طويلة، وبسبب المناخ الرطب والتساقطات المطرية. مع ذلك، كنا من العائلات المحظوظة نسبيا، فقد وصلنا إلى المدينة عائلة كاملة . الكثيرون فُقدوا في الطريق، خصوصا الصغار. تقتل الأم أو تُفلت يد الطفل فيفقد البوصلة ويتوه وحده في الزحام .

كانت نانجينغ مدينة كبيرة واسعة، مناسبة للاختباء وللحصول على فرص للعمل كذلك. فقد بدأت الحياة تدب في بعض الأحياء. دوريات العسكر اليابانيين لا تزال تجوب الشوارع، إلا أن القصف ابتعد وغادر جزء كبير من الجيش الياباني لغزو مدن أخرى. لم نعش مذبحة المدينة المشهورة، لكننا شاركنا أهلها سنوات الحداد .

أخيرا أفادتنا رحلات الوالد التي كان يقوم بها إلى المدينة، بحجة بيع الأعشاب الجبلية، وبعض منتجات الحرير التي كنا ننسجها نحن الإناث .

المحن تكشف الأسرار الدفينة. أثناء تلك الزيارات وبعد بيع المنتجات الحريرية، يهدي والدي لنفسه استراحة يوم أو يومين من حياة الزوج ورب الأسرة الصارم والمستقيم. ويعرج على ماخور المدينة، للقاء الخليلة لساعات، ويقضي ما تبقى في مدخنة الأفيون، الوباء الذي زرعته بريطانيا في الصين لتغمض عقول الصينيين وهي تسرق ثرواتهم. بتواطؤ غير معلن، لم تكن أمي تدقق أو تسأل والدي عن مردود المنتجات الحريرية التي نقضي شهورا في تطريزها .

هكذا، عند وصولنا إلى المدينة، لم نجد صعوبات كثيرة للاستقرار . لم يكن أبي غريبا تماما عن سكان نانجينغ. ساعدتنا علاقاته السرية في إيجاد عمل. كما ساعدنا صاحب المتجر الذي كان يبيعه الأعشاب الجبلية في الحصول على بيت هُدِّم جزؤه العلوي وغادره أصحابه إلى مدينة أخرى. السكان أو من تبقى منهم عادوا بعد تسكع طويل إلى دور خربة. معظمهم قتلوا أو دفنوا أحياء في مقابر جماعية. تداخل عالم الموتى والأحياء. لم تعد للمقابر حرمة لأنها أصبحت في كل مكان، على ضفاف النهر، في الغابات، وفي الشوارع .

كل عائلة من جيراننا كانت تبكي ميتا أو أكثر. منهم من كان يبكي قطعة من جسده، رِجلا أو ذراعا أو عينا... القنابل والمتفجرات بترت أعضاء الكثيرين، وذهبت بعقول آخرين، وتركت ندُوبا نفسية

لا تحصى. لا أحد كان يعرف عدد المفقودين ولا أعداد الموتى،
ولا عدد المقابر الجماعية، ولا عدد الأيتام والأرامل .
لنقل إننا هربنا من الموت في القرية وسكنا مقبرة كبيرة .

كانت فترة الحداد أطول وأصعب من الحرب. لا أحد تذوق فرح نهاية الحرب بعد ذلك .

شهور طويلة، لم نسمع شيئا عن القرية ولا أخبارا عمّن بقوا هناك. ذات عشية، وبينما كانت والدتي تخرج آخر حفنة من الأرز لتعد وجبة العشاء، الوجبة الوحيدة المتاحة في اليوم. عاد والدي مبكرا إلى البيت وبرفقته أحد أبناء عمومته. لا أعرف كيف التقيا، لم يكن السؤال مسموحا للإناث. دون مقدمات، وضع قريبنا حذاءه وكيسا كبيرا عند عتبة الغرفة، قبل أن يدخل وينحني بالسلام ويتناول معنا الطعام .

هكذا تكررت زيارة قريبنا الليلية، وكان علينا أنا وقوتشينْ أن نترك له فراشنا في زاوية المطبخ. أثار الكيس الكبير الذي كان يأتي به القريب فضول قوتشينْ وفتحته. فوجدنا فيه أحذية مستعملة. البعض منها فردة واحدة فقط . فعرفنا أن القريب يجمع أحذية القتلى. يقضي نهاره يجوب الشوارع والأزقة لنهب الجثث. ويبيعها أو يقايضها بعد ذلك. خصوصا الأحذية العسكرية التي يبيعها بثمن غال للمتحاربين .

سايغون.. شتاء 1950

لكل منا فترة من حياته يجهد في إخفائها عن الآخرين، وحتى عن نفسه. يدفنها عميقا في الذاكرة كي لا تباغته في يوم ما ويبوح بها. لذلك لن أتحدث عن الكثير مما عشته في المرحلة التي ابتدأت يوم تركني تاجر الأسلحة النتن، وانتهت بلقائي بمحمد. لأن تلك المرحلة عشتها كما اشتهيت، وكما لم أشْتَهِ. تنقلت بين أسرة جنود من مختلف الجنسيات. بدأت باحثة عن الحب والأمان وانتهيت عاهرةً. ذقت فيها الملذات حتى سكرت. عرفت فيها شتى الكبوات، لكنني كنت أنهض بسرعة من كبواتي، أكمم فم الجرح، أمنعه من الصراخ، أمسح الدماء التي تساقطت على بلاط حياتي، حتى لا أدع شيئا يُرَى من هزائمي. لأنني تعلمت منذ الصغر أن جروحي ليست مشاعا لأحد.. في كل مرة أنهض وأستمر في الزحف نحو البحر خلاصي الموعود.. لن أعود للوراء .

بينما كنت أتغنج في ثيابي الجديدة وأحلم بباريس في بيت بائع السلاح الفرنسي، كانت هناك حرب قائمة غير بعيد عن المدينة. وكانت في الطرف الآخر لمدينة سايغون حرب أخرى وراء أبواب مغلقة، حيث تجمع بشر من أجناس وبلدان أوروبية وآسيوية وإفريقية وأمريكية ينهشون لحم النساء .

اكتشفت حياة أخرى، حيث الفقر والموت بالتقسيط. أطفال يتامى شبه عراة وحفاة يجوبون الشوارع بحثا عن فضلات أو صدقة. يبيعون الدمى الخزفية والفواكه الجافة كتسول مقنع. أو يجولون ببالونات إشهارات مقابل بضعة نقود، لأطعمة لن يأكلوها، لمواد تنظيف لن يستعملوها، وعلامات ألبسة لن يلبسوها .

لم أكن وحدي، كانت معي أخريات طوحت بهن الحرب، فيتناميات وكوريات ولاووسيات وفلبينيات... زحفن نحو سايغون بدل العودة إلى ديارهن، بعد اندحار الجيش الياباني. فقد كن ضمن جيش آخر سمي بنساء الراحة. فتيات باعَهُن الأهالي أو أجرن بعقود للجيش الياباني، من أجل السهر على راحة الجنود الأعداء في البيوت المغلقة أو في الخنادق .

بعد العدد الهائل لحالات الاغتصاب في مدينة نانجينغ، التي شجبها المجتمع الدولي، عمد الجيش الياباني إلى حشد فتيات فقيرات لتصريف رغبات العساكر الجنسية، ولحمايتهم من الأمراض الجنسية المعدية .

أول يد مدت إليّ كانت يد دَيِّينْ، ابنة حارس البيت التي كانت تسكنه أسرة بائع السلاح الفرنسي. عائلة فقيرة تقيم في كوخ ملحق بحديقة البيت. في الحقيقة لم تكن بيننا مودة ولا حديث قبل ذلك، لأنني كنت أحسب نفسي أرقى منها وأكبر شأنا. لم تكن تسكن مع والديها،

كانت تزورهما بين الفينة والأخرى. امرأة على مشارف الأربعين، اعتقدت حينذاك أنها متزوجة .

صادف أن كانت دَيِّينْ في زيارة والديها، يوم جلست أبكي على عتبة البيت الفارغ، والحقيبة بجانبي لا أعرف أين أذهب، وأدعو على بائع السلاح بأن تطارده أشباح من قتلوا بسلاحه. لم أمانع حين عرضت عليّ مرافقتها إلى غرفتها في بيت يعج بالسكان أغلبهن نساء، في حي يقع في منطقة بأقصى الشمال الغربي، بعيدة عن وسط المدينة ومعزولة عن السكان .

دَيِّينْ لم تكن نعمة دخلت حياتي بمعنى الاسم الذي تحمله. غير أنها عملت الكثير لتبعدني عن التسول والعهارة الرخيصة والموت. وقتها لم يكن أمامي إلا خياران، إما أن آخذ زمام أموري في أقدم حرفة في العالم أو أقاد إلى جيش المتعة المرافق للعسكر في الخنادق .

في اليوم الموالي لظهوري في بيتها، قدمت لي دَيِّينْ رجلا فيتناميا كصديق وحام لها. لم يتوقف عن تفحصي طيلة اللقاء وهو يوشوش في أذن دَيِّينْ بلهجة فيتنامية لا أعرفها. عرفت أن الحديث يخصني وأنني سقطت في يد عصابة للاتجار بالرقيق الأبيض. لم أقاوم. أصبحت أعطي جزءًا مما أجنيه كل شهر لذلك الرجل الذي كانت لديه الصلاحية لتسعير كل وافدة جديدة، حسب شكلها وجنسيتها. فألحقني بملهى لُوبَابِيِّونْ، في شارع

كانْتينَاتْ حيث تجمع معظم الملاهي الليلية. لم أمكث به سوى أيام لأنني لا أحسن الرقص على إيقاع موسيقى غربية. تحولت إلى ملهى «لي بْرانْسيسْ»، واقتصرت مهمتي على مجالسة الزبائن وتشجيعهم على استهلاك أكثر قدر من الكحول .

دَيِّينْ كانت امرأة تعبر الحياة وحدها، أصابتها الكثير من سهام الحياة وشظف العيش. وعلمتني الكثير من خبرتها في المجال وجنبتني آلاما كثيرة. أولى نصائحها، هي ألا أسمح لزبون بتقبيلي على شفتي مهما كانت قيمته وحجته، القبلة عتبة القلب. حتى ولو كان الرجل ذاهبا إلى ساحة المعركة، وهو ما تضعف بعض النساء أمامه، حين يتسول الجندي قبلته الأخيرة. ثاني نصيحة هي عدم الوثوق بكلام الأسرّة، فكل الحكايات حقيقية لحظة نحكيها، وكل الكلمات صادقة لحظة ننطقها، المشكل أن كل ما يخرج من الشفاه يندثر فورا في الهواء. والأهم من ذلك، هو تجنب الحديث عن الحرب والسياسة. أَسِرَّتنا ساحات حرب محايدة. في هذا المجال، على المرأة أن تكون عمياء وخرساء لتحافظ على حياتها .

لمست دَيِّينْ، بخبرتها، الألم الذي يعتصرني، وفهمت أن منبع الألم ليس حبي لبائع السلاح الفرنسي، بل لأنني أضعت سنوات من حياتي قبل أن أكتشف زيف اللعبة. وأنني لم أكن سوى امرأة تسلية له ريثما تظهر أخرى.

وبهذا التحليل أصبحت الرغبة في الانتقام أقوى من أية رغبة. إحساس بألم من نوع لم أعرفه من قبل.
الإحساس بالخيانة ورغبة في الانتقام من الرجال.
نبهتني دَيِّينْ إلى أن الرغبة في الانتقام ستعمي الرجال حولي، ولن أجد من يخلصني .

في البيت الذي سكنته رفقة دَيِّينْ، كانت الغرفة المقابلة مسكنا لأربع كوريات قادمات من «ميكيِّين» ببرمانيا. كن ضمن مجندات في جيش آخر اسمه «فتيات الراحة». فضلن الاستمرار في أقدم مهنة، بدل العودة إلى الديار بعار لا يغفره المجتمع، مع بعض الأمل في زوج ينتشلهن من المأساة .

كنا نتبادل الأخبار ووصفات الأطعمة في المطبخ المشترك. حكين لي تفاصيل مؤلمة عن حياتهن في محطات الراحة للجيش الياباني، من الخنوع إلى التعذيب الجنسي الذي يصل في الكثير من الأحيان إلى القتل .

في ذلك الجزء من مدينة سايغون الجميلة اجتمعنا، شابات يافعات باحثات عن المتعة والمغامرة. بريئات لا نحتاج لآيات استغفار كي نكفر عن ذنوبنا، لهذا لم تكن لنا آلهة ولا كهنة. كنا فقط أجسادا عارية في براري الرغبة حين نحب، وساحات معارك حين نُغتصب .

أما الجنود فكانوا يقصدون أسرتنا بغم شهواني، يبحثون في أجسادنا عن زوجات، حبيبات تركوهن في الديار. أو يتخيلون ممثلات مشهورات علقن صورهن في مخادع العنبر. كنا بالنسبة إليهم أجسادًا بلا وجوه .

سريري كان حافلا، لكنني لم أعرف الحب الذي عبر صباي سريعا مع حبيبي المقاتل في قرية جسر ثُشو لائغ، أول رجل في حياتي. كان من الممكن أن يكون زوجي لو كنا التقينا في ظروف أخرى غير الحرب. ذكرى ظلت تسكنني، حبيب يخرج من بين أحراش الليل، يسد طريقي بمنكبيه العريضين. ويأخذني تحت سقيفة المعبد الخلفية. يحدثني عن احتمالات موته القريب، عن البيت الذي هدم والعائلة التي ماتت، عن الجبل والبرد والمطر والسرير الفارغ.. يبتز عواطفي ليبادلني الحب بشغف. وأبادله القبل كزوجين قديمين. في آخر كل لقاء يودعني وداعا أخيرا . كنت أحب يديه القويتين، نفس اليدين اللتين نحرتا العسكري الياباني بلمح البصر .

في هذا المنعطف بالذات، كان عليّ أن أنسى كل الذكريات، وأنسى من كنتُ ومن عرفتُ. أن أغمض عينَيَّ حتى لا أرى مأساتي الشخصية، ولا مأساة شعب آخر أعيش بينه. كان لابد لي أن أضع قناعا سميكا على وجهي، وأن أخفي كل قيمي الأخلاقية في الحقيبة الوحيدة التي فضلت لي من زمن البراءة. فخبأتها في

قاع حقيبة القصب مع صورتي أنا وتْشِنْ مَيْ، وما تبقى من خيوط الحرير الملونة .

توالي الخيانات جعلني أنزلق بسرعة نحو اليأس والعبث. لا شيء ظل في مكانه داخلي. تزعزعت مبادئي ومعتقداتي وإيماني. ووجدتني أفك العهد الذي عقدته مع السماء، أن أظل طاهرة وسوية إذا ساقت لي رجلا يسافر بي لأعيش في كنفه بأمان. أحسست أن السماء تخلت عني وتركتني فريسة للبشر .

جسدي أصبح وطني، الخرائط والحدود لم تعد تعني لي شيئا. الأديان والأسلاف والعقائد لم تعد بالنسبة لي سوى قيود للجسد .

منذ الصغر وعيت بقيمة جسدي وما أملك من جمال الروح وخفّتها. كان ذلك يوم أهداني ابن الجيران حصته من كعكة الأرز مقابل قبلة على خدي، ونحن نلعب في باحة البيت الخلفية. بهذا المنطق قايضت بائع السلاح على جسدي، مقابل رحلة إلى باريس وأنا في العشرين .

كل الدروب التي مشيتها استبصرتها في مرآة النهر. كل الأيادي التي لمستني أحصيتها على جسد طفولتي. كل الرجال الذين عرفتهم أخبرتني بأسمائهم زهرةُ الأقحوان وأنا أسأل ثُويْجاتها في حقل الربيع، ربيعي أنا .

لم أكن يوما مغمضة المصير ولا مستسلمة للقدر. قرأت مستقبلي في كفي الصغيرة التي كنت أمدها لأحصل على سكاكير أبناء الجيران، مقابل رضاي أو بسمة من ثغري. في كل أحلامي الطفولية لم أرضَ بأقل من أميرة تقود عشاقها إلى هاوية النشوة .

جسدي أصبح وطني وعائلتي وديني. فهل أعتبر خائنة وجاحدة وملحدة؟ لم أترك لذرة شك أن تتسرب إلى عقلي وتفسد عليّ مخططاتي، حتى وأنا في أقصى درجات الإحباط واليأس .

كلما تخلى عني رجل، أوعزت ذلك لتحول الأبراج وأُمني نفسي بأيام أجمل. أرجع خطوة للوراء، أتحصن في الركن المضيء من روحي، أنتظر الفرح، تحول الأبراج، وصفاء السماء لأطير .

لم أكن شغوفة بالقراءة، لكن من حسنات بائع الأسلحة أنه وضع الكتب بجانب سريري، فتعلمت من الكتب بقدر ما تعلمت من الحياة . لكنني أصبحت ملزمةً، في مهنتي الجديدة، بقراءة الجرائد. فملهى لِي بْرَانْسِيسْ كان مقصد جنود فرنسيين، وخبراء عسكريين أمريكيين قدموا لتمهيد دخول أمريكا إلى الفيتنام . كنت أتابع الأخبار حتى لا أبدو امرأة جاهلة أمام الرجال الذين أرافقهم. امرأة عارفة في زمن الحرب والصراعات تتقاضى أكثر، إذا أخذنا بعين الاعتبار ثمن ساعة متعة. فقد كنت أرافق مستوى معينًا من الجنود والخبراء.

يقضي الجندي شهورا في الخنادق لا يكلم أحدا، أو وحيدا وسط الأحراش يتربص بالعدو. في الإجازة يحتاج إلى امرأة تعيد له إنسانيته بالاستماع إليه ومشاركته الحديث. لهذا أصبح لي زبناء نوعيون، وأصبح لدي سمعة المثقفة، ما يعني أنني لم أكن عاهرة بالمعنى القدحي للكلمة بل كنت جليسة الرجال. ألم أكن جليسة أطفال في بيت بائع السلاح الفرنسي؟ دَيِّينْ نبهتني إلى أنّ صفة المثقفة لا تصلح لمهنتنا ولا للنساء عامة، لأن الرجل عموما يحب المرأة الجاهلة إلا بأمور السرير، وأن جهلي سيفيدني أكثر .

كبريائي كانت تحتم عليّ أن أقدم تبريرا مقنعا لتواجدي في أمكنة المتعة، لأبدو أمام الزبون كما لَوْ كنت مرغمة على ذلك بسبب ظروف قاسية في حياتي. فكان علي إبداع قصص محكمة ومقنعة. مرة أدعي أن أمي صينية، ووالدي تاجر شاي فرنسي. التقيا في شنغهاي وأحبا بعضهما. حبلت منه أمي. وعلى سرير الموت اعترفت لي بالحقيقة، وأنا في الطريق إلى فرنسا لألحق بوالدي. وأتحايل على الزبون في مساعدتي للوصول إلى هناك. لإسناد هذه القصة، أستعين بصورة للسيد باريير كنت سرقتها من مكتبته. مرة أستند إلى اسمي، وأدعي أنني ابنة موسيقي مشهور من أبدع صناع آلة القوتْشينْ، لولعه بالآلة سماني قوتْشينْ وعلمني العزف. وقد قطع الشيوعيون أصابعه لأن عزفه يذكر بعهد الإمبراطوريات وبالعبودية. كل مرة أختلق حكاية

تناسب شخصية ووضع الزبون. لكن حكاية أنني كنت راقصة ومغنية أحرق الغزاة مسرحها، كانت تسيل لعاب الكثيرين .

نانجينغ.. شتاء 1939

أقفلنا، أنا وأختي قوتْشينْ، عقدنا الثاني، ومع ذلك ظلت تحسسني بل ترغمني على تقبل أنها الكبيرة والمسئولة عني، لمجرد أنها سبقتني إلى الحياة بدقيقتين، وأن لها حرية أكثر لتوجيه حياتها وحياتي . الحقيقة أنها كانت تعرف هدفها، وتقرر عن نفسها، فاختارت أن تبتعد أكثر وأكثر عن القرية وعن المدينة وعن العار الذي لحق بالعائلة من رجل لا نعرفه حتى. ذهبت بعيدا إلى أن وصلت إلى الفيتنام .

أول الأمر، بدأت تتأفف من البيت الصغير الذي نسكنه، ومن الزاوية الضيقة في المطبخ التي تشاركني إياها. حين يطفأ الفانوس ويسكن البيت لا تنام «قوتْشينْ». تسرح في أحلامها وتطير بعيدا، تتقلب في الفراش لساعات. كانت أحلامها المندفعة تمر بجانب سريري فتزعجني. ونادرا ما كانت تشاركني هذه الأحلام. في إحدى هلوساتها الليلية أخبرتني بأنها تحلم ببيت أو حتى غرفة بشرفة تطل على ميناء. فهي تعشق السفن الراحلة. السفينة القادمة - شرحت لي - لا إثارة فيها، فالمسافر يصل إلى نهاية الرحلة كما يصل إلى نهاية الحياة . يكون قد عرف كل شيء. الماضي معروف. بينما السفن الراحلة هي بداية حياة، تستثير مخيلتنا بالغموض الذي يكتنف الرحلة، بمجرد ما تختفي السفينة

عند ملتقى الزرقتين. بين رفع الأشرعة والاختفاء وراء الأفق، تكمن لذة التخمين، وتستيقظ أحلام الرحيل والمغامرة الكامنة في دواخلنا. كانت تتلفّظ بكلام لم أفهمه حينها، فأنا لا أحب الغموض حتى ولو كان بحرا .

بمجرد ما استقررنا في نانجينغ، اشتغل والدي بستانيًا في بيت أحد أغنياء الحرب ثم في حديقة تابعة لثكنة عسكرية، مواصلا علاقته بالعشب والتربة، في انتظار أن يلتحق بنا يونغ، عائدا من ساحة المعركة كما كان والدي يخبر الجيران. أمي كانت تقول له ساخرة :

- اخفض صوتك يا رفيقي، ولا تجعل نفسك أضحوكة للناس، فالخفافيش تخرج في الليل لإرهاب الموتى، لا لشرف القتال .
فلا أحد يخرج إلى الحرب بمنامة وخفين من القش .

آخر مرة رأينا فيها أخي حين صعد إلى غرفته لينام وهو بلباس النوم .

احتفل اليابانيون بالنصر في المدينة ورقصوا على الجثث . أغلبها جثث مدنيين. تبادلوا أنخاب النصر بكئوس الساكي الممزوج بدم الأبرياء. انتصار قَذِر حُقق بالقتل الوحشي والتنكيل بالجثث . ثقب أسود لن يغلق في الضمير الياباني.. حكايات مفزعة تتناقل بين سكان المدينة عن حرق الأسرى، أو دفعهم جماعات نحو النهر، لقتلهم أو دفنهم أحياء. يحُكى أن المقاتلين الصينيين

ظلوا يرددون : «تحيا الصين » وهم يطمرون تحت التراب .

غادر العساكر المدينة تاركين وراءهم جزءا من قواتهم الأرضية، ومتاريس في كل مكان، وقناصة يحتلون سطوح المنازل، يتراهنون على من سيقتنص الأكثر من الأرواح .

آخر معركة، قادتها كتيبة من دون قائد، وبعدها رفعت الرايات البيضاء. أما ما بقي من المقاتلين الصينيين، فقد اختفوا في الدور المهدمة ليقتنصوا ما تيسر من أرواح اليابانيين، بما بقي لديهم من أسلحة. البعض فجروا ذخيرتهم حتى لا يستفيد منها العدو، تخلصوا من البذل العسكرية، واندسوا بين المدنيين . وآخرون رفضوا الاستسلام والهروب، خرجوا من الخنادق عارضين صدورهم للطلقات .

تسلمنا، نحن المدنيين، مهمة الدفاع عن أنفسنا. همنا الأول في المدينة هو البقاء على قيد الحياة، ألا تختطف النساء . الخوف من الاغتصاب كان أكثر من الخوف من الموت. الاغتصاب موت بطيء للمرأة، حينذاك يدفن الجسد المغتصب في مقبرة النسيان والإهمال: من سيتزوج امرأة مغتصبة مهما كانت وطنيته؟ ومن ستكون لها الشجاعة لتتزوج وتحبل وتلد بعد ما تعرضت له من وحشية؟ هل هناك حياة، بعد الحرب، لامرأة مغتصبة؟

كان التدريب قاسيا على إخفاء أنوثتنا، لدرجة أننا فقدناها نهائيا بعد الحرب. دفنت أنوثتنا مع الجثث: جمالنا، دلعنا، غنج الخطو، رهافة جلودنا، ابتساماتنا الملوحة للرجال، الرغبة في الجنس والمداعبة. بعض النساء غابت عنهن الدورة الشهرية لاختلال الهرمونات بسوء التغذية والخوف والانفعالات القوية. اقتصر لباسنا على السراويل الفضفاضة وقمصان من الثوب الخشن والألوان الغامقة. أصبحت المرأة كالطريدة تخشى أن يقتنصها رجل. رغم أن الهدف الأول من اختطافهن هو إلحاقهن بنساء المتعة، إلا أن اليابانيين كانوا يختارون بعضا من المختطفات، ممّن لهن مستوى تعليمي معين، للتمريض وترتيب الأسرة والطبخ .

رغم كل الاحتياطات، لم تنج الكثيرات من الاغتصاب .

زميلتي التي اشتغلت معي في متجر لبيع الأعضاء البديلة، كانت تدور في المحل كالمجنونة، و تختبئ بين الكَراتين كلما رأت بزة عسكرية: «إنهم يحطمون الباب .. العسكر يداهمون البيت..» توشوش لي وهي ترتجف. تخفي ضفيرتيها تحت ياقة القميص، وتشد تلابيب التنورة على جذعها، وتتكوم في الزاوية .

أمسح العرق المتصبب عن جبينها، أخضها بقوة كي تستيقظ من هلوستها فتعود إلى حالتها الطبيعية .

تلك النوبات ظلت تتكرر وتزعج رئيسنا في العمل. رغم أنها في حالتها الطبيعية لم تكن تتكلم، كانت منغلقة على نفسها، معزولة عن عالمنا، ولا تبدي حماسة لمغادرة العمل في المساء .

كانت قوتشين قد تركتنا، فأصبحت هذه الزميلة صديقتي. جمعتنا الذكريات المؤلمة ، وفقد الأحباب .

كانت وحيدة فأخذتها معي للبيت .

خلال نوباتها لم تكن تبكي. فهمت أنها لم تحك، لتُخرج ما بداخلها من رعب. في تلك الفترة لم يكن لدينا القدرة على سماع المزيد من الحكايات المؤلمة، كان لكل واحد منا ما يكفي من الحزن والألم .

بعد سلطانية حساء ساخن، انهمرت دموعها، وفُكت عقدة لسانها :

لماذا وهبتنا الطبيعة - نحن النساء-هذا الجسد ليكون وسيلة لإهانتنا وسببا لموتنا؟ كنا خمسة أفراد، والداي وأخوان يكبرانني بسنوات. الذكور كانوا يغادرون البيت في النهار هربا من العسكر، ولا يعودون إلا آخر الليل. أظل أنا وأمي والقط في البيت. نغلق علينا الأبواب والنوافذ، ونحرص على ألا نبدي حركة أو صوتا أو رائحة طبيخ، كي لا نثير انتباه دوريات العسكر المسعورة .

ومع ذلك داهم العسكر بيتنا الصغير . كانت أمي تصرخ باستجداء، وهي تقدم ما في الخزين من مئونة، لتصرف انتباه العسكر عن وجودي. أخفتني وراء ظهرها وحمتني بجسدها .

كانوا يضحكون من صراخ أمي، ويركلون الأثاث بأحذيتهم الثقيلة . التهموا كل ما في المطبخ، ثم شدني قائدهم من ضفيرتي وأخذني إلى غرفة أخرى .

لم أقاوم، لم أبك ، لم أصرخ .. فقط، كانت عيناي مفتوحتان على وسعهما من الفزع .

تبعني قطي الذي لا يفارقني كظلي. حدق بعينيه الخضراوين في المشهد، الجسم الضخم وهو يسحق تحته جسدي النحيل .

بدأ القط يموء بشدة، ويخدش الأرض بمخالبه الأمامية. مواء لم أسمعه منه إلا في فترة التزاوج، حين يرغب بشدة في الخروج من البيت بحثا عن قطة .

كان مواء القط أشبه بأنين البشر، غطى على صراخ والدتي في الغرفة الأخرى.. نظرات القط كشاهد على الجريمة، ومواؤه المسعور، أزعج العسكري. بعصبية، قام عن جسدي، وأفرغ مسدسه في جسد القط، قبل أن يستأنف اغتصابه. في تلك اللحظة بالذات سمعت طلقة

رصاص في الغرفة الأخرى. قتلوا أمي، وقُتل القط نيابة عني .

تمنيت في تلك اللحظة، لو أن مسدس العسكري كان فيه المزيد من الرصاصات ليقتلني أنا أيضا .

في الليل لم يعد والدي ولا أخواي. وبقيت جثة أمي ثلاثة أيام من دون دفن. لم أقدر على الوقوف والمشي. بقيت ساعات وأنا ممدة على الأرض، عيناي في عيني القط الجاحظتين في الموت. كعاشق قدم روحه قربانا لمعشوقته، لم ينطفئ لمعان ذلك اللون الأخضر الجميل في عيني القط .

ذات ليلة، تأخر والدي في العودة للبيت. خرجت، أنا وقوتْشينْ للبحث عنه. لم نبتعد كثيرا عن البيت حين وجدناه جثّةً بلا رأس، تغطيه سحابة من الذباب. والقبعة بجانبه .

صدقت أمي حين حذرته مرارا: «انزع عن رأسك قبعة العسكري، فستكون سبب حتفك». لكنه أصر على الاحتفاظ بها منذ وجدها في طريق عودته. «طوال عمري وأنا أغطي رأسي، لن أكشفه وأنا في هذا العمر. وتحت هذا الصقيع ».

حين يصاب العساكر اليابانيون بالملل من لعب الورق في العنابر، تحركهم آليات غامضة للقتل، يخرجون إلى الشوارع، وهم يتباهون بغطرسة بأوسمة حروب سابقة، للتسلية بقطع رؤوس البشر .

وجدنا القبعة، ولم نجد الرأس . كانت هناك كلاب ضالة تحوم حول المكان، والمتاريس قائمة في مدخل الحي، ودورية العسكر تكثف جولاتها في الليل. لهذه الأسباب لم نبحث طويلا عن الرأس. انبطحت قوتْشينْ وزحفت على بطنها وجرت الجثة بحذر .

إحساسنا بالارتياح كان أكثر من الإحساس بالحزن، لأننا، على الأقل، لن نقضي العمر في انتظار عودة شبح، كما حدث مع أخي يونغ. فالموت مؤكد والجثة موجودة حتى ولو كانت بلا رأس .

كنا مستعدات لذلك الموت المفاجئ، كأنه شيء عادي، يجب أن يحدث. لم نبك الفقيد، فقدنا الرغبة في البكاء. لم يعد أي حدث، مهما كان كارثيا، قادرا على إثارة دموعنا، التي كنا في أمَس الحاجة إليها حتى لا نفقد عقولنا. لا أحد يظل سويا في الحرب .

عادة تقوم الحرب بين الخير والشر، لكن حربنا أخذت أشكالا غرائبية، فقد كانت كذلك بين الخير والخير.. وإلا، لماذا يقتلون رجلا أعزل بعد انتصارهم؟

لاذت والدتي بالبيت لا تغادره، وأكثرت من الصلاة. أسمعها تطلب الرحمة من السماء: «يا الله لقد دُمر عالمك الجميل، فاصنع لنا عالما آخر، فقط، من أجل الأطفال الأبرياء». أصبحت أمي ظلا يتنقل بين جدران البيت الخرب، وتنادي أشباحا لا يراهم أحد إلا هي .

سايغون.. ربيع 1950

الحقد والرغبة في الانتقام اللذان كنت أكنّهما لتاجر السلاح الفرنسي، ظلّا قيدا يكبل عواطفي. فقررت أن أتخلص منهما بنسيان ذلك الرجل، وأن أخطو إلى الأمام. في إحدى الليالي دخلت إلى حانة ليلية اعتدت التردد عليها، ووجدت رجلا أعمى يعزف على آلة القوتْشينْ، عزفا عذبا وحزينا. وقفت مشدودة للعزف. زبناء الحانة كانوا مخمورين، لا أحد انتبه للعازف. كانت الحانة خافتة الضوء، فبكيت في الظلمة. بكيت بصدق لم أعرفه منذ سنوات. ثم إذا بيدٍ توضع على كتفي، وأخرى تمد لي منديلا لأمسح الدمع .

أخذني الرجل إلى طاولة جانبية، وجلس قبالتي :

- هل من الممكن أن أعرف ما يبكيك في هذا العزف؟

فجأة، نفضت هشاشتي، أيقظت المرأة المراوغة في داخلي، جمعت قواي، أخذت نفسا عميقا، وبدأت في سرد حكاية ابنة صانع القوتْشينْ الذي سماني على اسم الآلة، وعلمني العزف عليه منذ الصغر، وقد قطع الشيوعيون أصابعه. وشردت عائلته .

أُشعلت الأضواء، قام العازف الأعمى من مكانه، انحنى لجمهور لم يصفق له، ثم نزل من المنصة واتجه نحو طاولتنا بثبات. قدمه الرجل الجالس أمامي :

- هذا صديقي لي، عازف وأستاذ موسيقى .

والتفتَ إلى العازف :

- هل تعير آلتك لهذه الآنسة لتعزف قليلا.. والدها كان صانعا وعازفا لآلة؟

ارتبكتُ، صعد الدم إلى وجنتي، لكنني كنت أكبر مراوغة فأجبته :

- لا يمكنني أن أفعل ذلك الآن، صاحب الحانة يراقبني، وعليّ أن أجعلكما تثملان لا أن أعزف لكما. ربما سأفعل هذا في بيتك بعد انتهاء عملي .

فهمت أن خوان الإسباني، وهو اسم الرجل، شك بي. لكن فكرة مرافقته للبيت، بدت له أكثر إغراء من عزف منفرد .

.. ودُعيت للتوجه إلى المشرب .

لكن العازف الأعمى، والذي لم أميز ملامحه في الظلمة، ولا عينيه المختفيتين تحت نظارة سوداء سميكة، شدني من ذراعي بقوة وثبتني على الكرسي. دس أنامله بين طيات الوشاح السماوي حول عنقي. الوشاح هو ما تبقى لي من المشغولات الحريرية في القرية. طرزت أنا عليه مراكب صغيرة، وجْيِنْ مَيْ قامت بتطريز نوارس محلقة. عدَّ السيد لي ثلاث طيات. قلب الطيات

طية طية، وتحول من الفرنسية إلى اللغة المندرينية. خمنت أنه لا يريد أن يفهم الإسباني حديثنا، أو لأفهم كلامه بوضوح. همس لي: لوشاحك ثلاث طيات، طية للنسيان، وواحدة للذاكرة، أما الثالثة فللموت .

ضحكت عاليا وبسخرية .

بلهجة صارمة قال لي :

- سأقرأ مستقبلك وأستسمحك بقراءة ماضيك .

قلت :

- هو مجرد وشاح، أغيره بآخر، فما دخله بحياتي .

وضع الأعمى ذراعه حول عنقي، وثبّتَ كتفي جيدا إلى درجة ألمتني: هناك ثلاث طيات، واحدة من الماضي تقول إنك وُلدت فرسا حرونا، لا تحبين الحظائر المسيجة ولا تثبتين في مكان، خلفك حرب وقتل ودمار. الثانية للحاضر، تفضح ظمأك للمغامرة والحب العابث.. مازلت ترقصين وسط الحرب. الطية الثالثة للمستقبل - سكت برهة - عنوانها بحر وسفينة مغادرة.. سفينة تغادر مرفأ للعائدين، ربما جنود ربما لاجئين. لكنك أنت بالذات ستغادرين عكس التربة التي أنبتتك، في اتجاه أرض لا تعرفينها، ستدفن فيها روحك قبل جسدك.. ستشعل حرب أخرى خلف آخر خطو لك في هذا البلد .

اقشعر بدني، وأبعدت يد العازف بتذمر، ثم سرت نحو الكونتوار بوجه ممتقع من الخوف .

هل كان علي أن أصدق العازف الأعمى؟ أو على الأقل، أن أصدق وشاحا مر بمعارك عديدة وظل ملتصقا بعنقي؟

في هذا الجو الملتبس، واللحظات الغرائبية، تعرفت على خوان رودريغو أمية مصور الحرب الإسباني .

خوان عرف أن الحكاية من صنع مخيلتي، ولا صحيح في القصة غير اسمي قوتشين. فُتن بي، وأنا إلى حد ما فتنت به، رغم أنني كنت أصبو إلى رجل فرنسي . لكنني أقنعت نفسي أن هذا الإسباني سيفتح لي أبواب أوروبا . ولِمَ لا، أمريكا اللاتينية، حيث يوجد بعض أقاربي البعيدين . أعجبني الإسباني لرقة مشاعره الإنسانية، وسخائه، والأكثر من ذلك احترامه للمرأة .

بعد أسابيع من أول لقاء لنا، سألت خوان عن صديقه لي، عازف القوتشين الأعمى، فأكد لي أنه لا يعرف رجلا بهذا الاسم ولا عازفا أعمى. بل أنكر حتى اللقاء الذي جمعنا نحن الثلاثة في الحانة .

لحد الآن، وأنا في هذا العمر، أتساءل هل حدث ذلك فعلا؟

كدت أقنع خوان بشيوعيتي وبالرحيل معه، وحتى الزواج بي. كان قد مر على لقائنا الأول ثلاثة شهور. في ليلة سكرت، وفقدت السيطرة على لساني، وبدأت ألعن الشيوعية والشيوعيين وكل أعمام لينين وأخواله، وأحملهم مأساتي وتشردي ومأساة العالم .

حين استيقظت صباحا، كان خوان قد رحل، وترك ساعة يده الثمينة على حافة المغسل. ولم أره بعدها. كان شيوعيا متجذرا. بل كان أحد أقطاب الحزب الشيوعي الإسباني .

بما أن الحرب جعلتني أشك في كل شيء. وبعد أن أقسم لي أحدهم، أنه سبق أن عرف السيد لي كموزع للرسائل في الجيش الفرنسي. راودني الشك، بعد اختفاء خوان، بأنه كان جاسوسا لشيوعيي الشمال، والسيد لي لم يكن، عازفا أعمى، بل مرافقا لخوان كمقتفي أثر، يقوده إلى حيث ستدور المعارك وإلى الملحقات العسكرية .

مازحت دَيِّينْ :

- كنت سأندم وأحزن، لو كان خوان فرنسيا.. على الأقل فزت بصورة جميلة، التقطت بحب، من مصور محترف تنشر له مجلات مشهورة .

كنت أقصد صورة نصفية التقطها لي خوان على المرفأ. شعري الطويل تحت قبعة من القش، وقميص ساتان دون أكمام بياقة مرتفعة مع عقدة مذهبة في الوسط. يبدو خلفي مركب وبحارة يشحنون البضائع استعدادا للرحيل. مازلت أذكر لون القميص الأحمر الطويل والبنطلون من الكتان الأسود، اللون الحليبي لقبعة القش .

كانت الصورة الوحيدة التي احتفظت بها من سنوات إقامتي في سايغون، وأخفيت سياقها عن زوجي .

مع ذلك اكتأبت أياما .

لتخفف عني دَيِّينْ خسارتي حكت لي حكايتها :

«لقد كنت طيلة حياتي أتوق للحب. لم أفعل طيلة شبابي سوى الجري وراء حب صادق، وهو عملة نادرة، من الممكن أن نجدها في الربيع، وأنا الآن على مشارف الخريف .

قد تكون حكايتي شبيهة بتجربتك مع تاجر السلاح. في منعطف ما من حياتي، صادفت رجلا. حين التقيته كان رجلا يائسا وبئيسا، يكاد لا يغادر مدخنة الأفيون . تركته زوجته ونفر منه أولاده طيلة تسع سنوات. كان مريضا بجسد منخور وقلب ضعيف، فأشفيته بالحب. كان روحا مهزومة تسبح في الظلام. ساعدته وأعدت له

ثقته بنفسه وبالعالم، زرعت في نفسه الأمل باستعادة أولاده وثروته. جعلته يعتقد في فحولة لا يملكها. أعدته للحياة ليقتلني. أخرجت الجني من القمقم، وحين خرج أدخلني نفس القمقم .

استعاد الرجل بعضا من عافيته، وعاد إلى أعماله وأطيانه. فبدأ يتهرب مني. كان الألم سيكون أقل، لو أنه عاد إلى زوجته. لكنه اتخذ محظية أصغر وأجمل .

حين علمت بالأمر، لم أخبره، بل سبقته بطلب مني لقطع العلاقة، وادعيت أن رجلا طلبني للزواج ولمرافقته إلى أمريكا. واخترت أمريكا كبلد لأغيظه أكثر. ما ادعيته سببا للانفصال لم يكن سوى قناعٍ لكبرياء امرأة مجروحة. صحيح تعرضت لهزة كبيرة ولطعنة قاتلة. لكنني حفظت كبريائي. خسرت وحدي وانتكست أمام نفسي فقط، لم أسمح له أن يسمع أنة الوجع وهو يطعنني .

لقد غرر بي الرجل، وهو ما تكرر، فيما بعد، مرات كثيرة في حياتي. ولولا أنني وصلت هذه المرحلة المتأخرة من العمر، لكنت كررت نفس الخطأ ذاته ولما راوحت خندق الخاسرات. استوعبت الدرس في وقت متأخر. نحن، معشر النساء، ورثنا عن حواء نفس الغباء العاطفي، ومشينا نفس الطريق المليء بالأخطاء. نساق إلى حظائر الرجال كالنعاج. المصيبة هي أن نوعية الرجال تغيرت اليوم، وأصبحوا أكثر استذآبا. ولم تعد الكثيرات

يحصلن حتى على حظيرة. لهذا تجديننني، دائما أنبهك، فما زلت شابة في مقتبل العمر. الأمنيات لا تغير القدر صغيرتي. ونحن هنا مجرد عابرات سرير. كلهم ينسون، لا أحد يتذكر. إذًا درّبي ذاكرتك أنت كذلك على النسيان .»

سايغون.. شتاء 1951

بعض الأحلام تكف عن زيارة لياليا في مرحلة معينة من العمر، فلا داعي لانتظارها. ركوب الموج العالي يصيب بالدوار ويسوق إلى الموت إذا لم نكن نحسن العوم أو حين يخوننا الجسد .

ما خاب ظني ولا مرة، إلا حين بدأ جسدي يفقد طراوته، ويمشي نحو كهولة مبكرة، لا تقاس بالسنوات. وما كفرت بأحلامي إلا حين جف نبع مخيلتي بجفاف جلدي. ما نضبت مشاريعي الشيطانية
إلا حين تعب الشيطان الذي يسكنني والذي كانت تخشاه جِنِّ مَيْ ووالدتي .

حلم البحر والسفينة الذي كنت أحدث به أختي في ليالي الأرق، داخل غرفة ضيقة بلا نافذة في نانجينغ، ظل قائما في داخلي ولكن بأفق أقصر .

كلما اقترب مني رجل أبادره بالسؤال: «هل تسكن قرب البحر؟ خذني إلى البحر». بعض الرجال كانوا يظنون بي العته فيفرون من حياتي بسرعة. بعضهم كان يجاريني ويعدني بسفينة راحلة نحو أوروبا. والبعض الآخر يطلق العنان لوعوده حتى يصل بي إلى القارة الأمريكية. في انتظار ذلك، كنت أجمع المال لأكون مستعدة للحياة الجديدة هناك. لم أكن أرغب في بداية

فقيرة. لكي أصطاد رجلا ثريا لابد لي من ثياب فاخرة وبيت نظيف على الأقل .

اختفت دَيِّينْ .

كانت فترة إنزال ضخمة للجيش الفرنسي. عرفت المدينة وافدين جددًا. شاحنات تتنقل بين المدينة وساحات المعارك. تأخذ أجسادًا شابة وقوية وتعيد جثثا أو أجسادا ناقصة . كانت تصلنا أصداء عن حرب في أوروبا أكثر اتساعا. أغلب الأجانب المحاربين في الجيش الفرنسي كانت لديهم علاقات مع فيتناميات . كنت من الصينيات القليلات اللواتي حشرن في هذه الحرب. فكان لابد لي من الحذر أكثر وإخفاء جنسيتي. فصينية تتقن الفرنسية لابد أن تكون شيوعية تتجسس على الجيش الفرنسي الذي يحارب الفيت مين.
خصوصًا أن موجة استقطاب الفيت مين للأجانب الذين جندتهم فرنسا من المستعمرات ، بدأت تنتشر. وبدأ الشك يحوم حول دور نساء البيوت المغلقة .

اختفاء دَيِّينْ كان جرس إنذار لي. أن تعود الواحدة منا بكدمات وآثار ضرب وتعنيف كان عاديا. لكن اختفاء امرأة منا، يعني أنها قتلت بشكل من الأشكال .

انتبهت إلى أنني بدأت في أداء دور، ونسيت مع الوقت أنني أمثل، فأدركت أنه حان الوقت للانسلاخ من شخصية بائعة المتعة، والاختفاء من البيت ومن الحي .

رأيت دَيّينْ آخر مرة، وهي تغادر البيت في الواحدة صباحا، وهي ترتدي فستان السهرة. كنت أنا عائدة من الملهى. أخبرتني على عتبة الباب بأن زبونا طلبها لمرافقته إلى حفل ساهر خارج المدينة .

في هذه الأزمة، تذكرت ديانتي المسيحية التي أضافها بائع السلاح لوثائقي، والتجأت إلى الكنيسة. تلك الوثائق أهلتني لأكون محمية من الفرنسيين الذين كانوا يستقبلون حينها كاثوليك الشمال. اشتغلت معهم فترة في مساعدة النازحين من الشمال .

أول شيء فعلته هو جمع أغراضي وتغيير سكني. فأصبح لي عنوان ثابت ولائق لمراسلة جْينْ مَيْ، حتى ولو كانت الرسائل تستغرق شهورا أو لا تصل. سألتني الراهبة الأم عن مؤهلاتي المهنية، فذكرت اشتغالي في محل لبيع الأحذية في نانجينغ. تدبرت لي أخت من الكنيسة عملا في محل لشركة باطا للأحذية، يقع في الشارع نيغْوِيانْ هُو .

كانت الخسارات قد فتّتت قلبي نتفا، وفترت الحياة بداخلي. نزعت قناع العبث ووضعت قناع العفة .

من الأخبار القليلة التي وصلتني من جْينْ مَيْ، وفاة والدتي، والتحاق جْينْ مَيْ بعائلة زوجها. في كل مراسلاتنا، لم تطلب مني العودة إلى الصين. لأن البلد

كان يطل على حرب أخرى بين الإخوة، دخل بعدها في نظام صارم، وأغلق حدوده .

لماذا لم أفكر أنا في العودة إلى الوراء، إلى وطني، وأنا ما أزال قريبة منه؟ لأنني لم أكن من اللواتي يتراجعن مهما كانت الخسارات. كنت من فصيلة نساء يعاندن القدر. وحتى لو استسلمن، هن من يخترن مكان استسلامهن. ذهبت بعيدا لأموت، لم أتحمل أن تشيعني عيون مشفقة للذين أحبوني .

نانجينغ.. صيف 1939

بعض المبشرين الأوروبيين، فتحوا مصنعا للأعضاء البديلة بقصد مساعدة السكان، فكان أول عمل لي هو الاشتغال في محل بيع الأعضاء البديلة. أنضجتني الحرب قبل الأوان، فتعودي على رؤية الجثث في القرية، ساعدني على تحمل لمس أماكن البتر في الأجساد الناقصة، لأخذ المقاسات وتجريب الأعضاء على الزبائن. إنه شيء مرعب ولا إنساني تسرب إلى دواخلنا وقتل مشاعر الخوف والتقزز. في الرابعة والعشرين، استنفدت مخزوني من الإحساس بالألم. مات القلب وتصلب الجسد. لا شيء يحصل بعد الحرب أقسى من الحرب. لكنني كنت أنهار من بعض المشاهد وأفقد لامبالاتي أمام بعض الأحداث . مرة دخل شاب وسيم إلى المحل، وطلب ذراعا. لأخذ المقاسات، نزع عنه القميص، وكشف عن صدره وظهره. كان جلده ناتئا ومحروقا يُظهر لون ضلوعه. يده المتبقية ناقصة إصبعين. لاحظ الشاب انزعاجا أفلت مني، فابتسم ليطمئنني وقال: «لا أحتاج إلا إلى ذراع وقميص بأكمام طويلة لأبدو كاملا، لا أحد سيلاحظ شيئا في حفل زفافي ».

والتحقت أختي قوتْشينْ بعائلة فرنسية كجليسة للأطفال، مستغلة بعض الجمل الفرنسية التي التقطتها

من خرجاتها الليلية. رب العائلة كان تاجر سلاح ينتقل من بلد إلى آخر، متبعا خريطة الحروب الكثيرة التي عرفتها المنطقة حينذاك. لا أعلم المقابل الذي قدمته أختي لتاجر السلاح لكي يأخذها مع عائلته إلى الفيتنام، كمحطة عبور قبل الرحيل إلى فرنسا. قوتْشينْ كانت جميلة، ومغامرة. رغباتها وأحلامها مغايرة لبنات جيلها. لم تتردد في قبول الدعوة حالمة بالطيران إلى مدينة الحرية، بحجة الهروب من ألسنة الناس والعار الذي قلص من فرص طلبنا للزواج. لم يكن العار إلا ذريعة، لا أحد كان يعرف الأحلام المجنونة لـقوتْشينْ مثلي أنا. كان مقصدها الغرب بحثا عن آلهة أقل تشددا. لهذا ساعدتها في إقناع والدتي، بأن عملها وسفرها سيساعد العائلة ماديا، ما سيسمح لي بمتابعة الدراسة .

سايغون.. ربيع 1951

ظهر محمد كهدية حرب ملغومة .

كنت وحيدة، حزينة وخائفة، ضائعة، أقف أمام
منعطفين، لا أعرف هل أنعطف يمينا أم يسارا، أو أظل
أسير في نفس الطريق الذي أعرف نهايته .

كانت سايغون تعرف بين الفينة والأخرى أحداثا
عدوانية تجاه مكاتب ومحلات وبيوت فرنسية،
وشعارات تكتب على الجدران من المتعاطفين مع الفيت
مين والراغبين في الاستقلال: «تسقط فرنسا» و «إلى
الجحيم أيها الفرنسيون ».

السنوات الثقيلة التي عشتها أثقلت كاهلي، وجعلتني
أمشي ورأسي بين كتفين منحنيين. في طريق الذهاب
والعودة إلى محل بيع الأحذية «باطا»، محل يتألف من
طابقين وواجهات زجاجية على الشارع الرئيسي، أمر
يوميا بفندق «كونْتِنانْتالْ بلاسْ». في ذلك اليوم حدث
انفجار في المحل المجاور له. فأسرع الناس بالهروب بلا
هوادة، الحجارة وقطع الإسمنت تتقاذف في الشارع .

كانت الحرب في سايغون متعددة الأقطاب، الفيتْ مينْ
مدعوم بالحزب الشيوعي الصيني، الفرنسيون
مدعومون بعملاء فيتناميين تابعين للملك «بَاوْ دَايْ»،
وأفواج أولى من المخبرين والخبراء العسكريين

الأمريكيين، الذين انتشروا لفتح الطريق أمام الجيش الأمريكي القادم. عدو اليوم هو صديق الأمس، وصديق اليوم هو عدو الغد.. ما كان علينا نحن المدنيين إلا الاحتماء بأي سقف نجده في الطريق .

كان المقصود من التفجير، الطوابق الثلاثة لفندق «كونْتينانْتالْ بَلاسْ»، حيث ينزل السياح الأجانب والضباط الفرنسيون .

في لحظة كهذه، أصبحت تتكرر باستمرار، سحبتني ذراع قوية، بسرعة فائقة، من تحت سقف الإسمنت، الذي كاد يهشم رأسي. ثم حشرتني بين الجموع المختبئة تحت سقيفة محل تجاري لبيع المواد الغذائية .

ظلت الذراع تشدني. أحسست بقوة ودفء الجسد الملتصق بي. لم أرَ وجه منقذي حينها، لكن قشعريرة سرت في أوصالي، مع شعور بالطمأنينة والسكينة .

هدأ القصف، التفت لأرى الوجه الذي أشعرني بأمان افتقدته منذ سنوات. وجدتني وجها لوجه مع محمد. رجل شديد السمرة، بحاجبين كثيفين، وعينين سوداوين، تقذفان شرارات رغبة عفيفة. كان يرتدي لباسا عسكريا فرنسيا ويتكلم فرنسية بتضخيم الراء .

هكذا التقيت بمحمد. لم يرَ فيّ المجنونة. وأنا، لم أمنع عنه شفتي. من أول قبلة بادرته: جسدي بدأ يجف هل تأخذني إلى البحر؟ غمز لي بخفة ومرح وأجابني : «أنا الفارس العربي الذي سيأخذك للبحر، وسأحارب القراصنة لأبلغك إلى ميناء أنفا » ، ثم ممازحا : «من المصادفات الغريبة أن مدينتي البعيدة، تقع على بحر المحيط الأطلسي ».

رافقني محمد حتى سكني، دون أن يطلب مني أي شيء. ليعود مساء الغد منتظرًا أمام المتجر .

محمد كان ضمن آخر دفعة التحقت بالفيتنام، كجندي من الفوج الرابع للمشاة المغاربة في الجيش الفرنسي .

كان عسكريا متحمسا، ورجلا مؤدبا بروح مرحة، به شيء من العفة والخجل. لكن ما لم ألاحظه في شخصيته، حينها، أنه لا يختلف كثيرا عن الرجل الصيني .

تمنيت لو كان أكثر رومانسية، كما في الروايات والأفلام، لكنا تبادلنا رسائل الحب وهو على جبهة القتال .

سألته :

- هل ستعود قريبا إلى الجبهة؟

- لماذا؟

- لنتبادل الرسائل من ساحة الحرب .

ضحك عاليا :

- آسف. نحن على مشارف نهاية الحرب. ربما ستكون آخر مرة نذهب فيها إلى الجبهة. أمامنا معركة أخيرة حاسمة ونعود إلى الديار .

أصبحت مواعيدنا مضبوطة أمام المركز الرئيسي للبريد، أو أمام كاتدرائية نُوتْردامْ، كلما أتيحت له فرصة التواجد في المدينة .

وكانت أجمل أيام حياتي .

وحده محمد رأى ما تبقى من الضوء في روحي. وحده أدرك عطشي وتحسس دُمَّل الحياة على جسدي. رغم أن طموحي كان أكبر من رجل عربي، يخبئ جسدي في جلباب العفة. لكن، حين تصبح حياتنا بركة راكدة، نتمنى أن يأتي شخص ما، ليلقي حجرا ولو صغيرا فيها، كي نحس بدبيب الحياة. رجل كيفما كان، غنيًا أو فقيرًا، أسود أو أبيض، مسلمًا أو مسيحيًا أو يهوديًا أو بوذيًا.. في تلك اللحظة ليس لدينا الحق في الاختيار ووضع الشروط. وأنا لم يتبقَّ لي خيارات أخرى. أسطورة جسدي بدأت تنهد تحت وطأة السنوات، فما بالك إن كانت سنوات حرب .

دمرت حياتي بما يكفي. كنت في حاجة إلى رجل يتسلم عني الحياة ويقرر عني. تذكرت صديقتي دَيِّينْ وهي تنتقد شرهي للمال والثياب: «الحياة صغيرتي ليست سيارات فخمة، ولا سهرات في مطاعم فاخرة، ولا حتى فساتين حرير مطرزة وهدايا من الذهب والجاد. الحياة هي تلك اليد في اليد، وكتف يسندكِ عند التعب، وسرير دافئ بأنفاس رجل، يُؤْويك كل ليلة.. أعطي كل أملك من أجل ذلك ».

قررت أن أتشبث بمحمد مهما كان الثمن .

أحببته. فلولاه، لكنت انتهيت امرأة تلعق جروح جنود حرب ثالثة قادمة، ومت كحشرة في ماخور جنود أمريكيين .

للحب طعم خاص في الحرب.. طعم الخوف، رائحة البارود، لون الدم وملوحة الطحالب المرتحلة .

طعم الخوف.. الخوف من الموت بين قبلة وقبلة. الخوف من سقوط شجرة نتبادل تحتها القبل. الخوف من أن يسقط السقف على السرير الذي نمارس فيه الحب .

للحب في الحرب ظلال سوداء.. ظلال الحداد والحزن على حبيب سابق قتل في المعركة. حزن على أم ماتت

تحت الأنقاض، على أخ استشهد في الجبهة، على أخت اغتصبت جماعيا وانتحرت .

الحب في الحرب، لا يعرف كم سيحيا، لأن الموت قد يصطاده بعد ثانية، بعد ساعة، بعد شهر .

في الحرب لا نحتاج وعودا أبدية للحب والوفاء، لأننا لا نملك سوى لحظة تلامس الشفاه، كما لا تملك اليدان فرصة لعناق طويل. وقد لا تملك الشفاه فرصة الانزلاق نحو العنق، نحو الظهر، نحو الخصر .

في الحرب لا وقت لنزع البذلة العسكرية، ولا الفستان الحرير ..

قد لا يملك الحب ساعة لاكتمال الرغبة .

في الحرب لا نعطي الوعود، لأن الوعد قد يصبح جثة هامدة، فور انتهاء العاشقين من قبلة الوداع.. حين يعبران الشارع كل في اتجاه، لأن كل الاتجاهات في الحرب تؤدي إلى الموت .

لم أقل يوما إلى اللقاء. بعد كل رحلة حب، أنفصل عن جسد حبيبي بلهفة الذي لا يعود. أتزود من ريقه برشفة التائه في الصحراء، وعطش الظامئ الأبدي .

للحب لون آخر في الحرب، لون الغسق، وروعة شمس الغروب، وبرتقاليُّ الشفق .

لا وقت لتأمل اللحظة، كي تظل مرسومة في الذاكرة.
لأنه،
لا ذاكرة للحب في زمن الحرب .

للحب طعم مميز في الحرب .

نانجينغ.. أغسطس 1945

أعلن عن انتهاء الحرب العالمية الثانية. كنت في طريق العودة إلى البيت، بعد يوم مضنٍ ومؤلم من أخذ قياسات الأعضاء البديلة. كان الجو حارا، جلست لأرتاح قليلا في مشرب يقدم مشروبات باردة .

أعلن الراديو عن انتهاء الحرب .

انتهت الحرب بإسقاط قنبلتين، وبأمر من الرئيس الأمريكي «هاري ترومان»، على مدينتين يابانيتين، واحدة سقطت على هيروشيما وأخرى على ناجازاكي .

ألم تكن هناك وسيلة أخرى لردع المارد الياباني، غير قتل الأبرياء؟

هل كان عليّ أن أشمت أو أتشفى في قاتلي؟

في المشرب، هناك من هلل فرحا، وهناك من حنى رأسه بألم . لكنني لم أفهم مشاعري بالتحديد وقتها، دواخلي كانت تنزف. لم أفرح لأن معظم الضحايا 220000 من المدينتين كانوا مدنيين أبرياء متأثرين بالحروق والجروح والتسمم الإشعاعي. إنه ثمن غال جدًّا، من أجل إنهاء حرب. لا شماتة في الحرب.. الأموات لا يشمتون ببعضهم، لأننا نحن كذلك ضحايا الغزو، كانت أرواحنا قد ماتت، والرغبة في العيش ماتت. معظمنا

يسير بروح مكلومة وبأجساد مبتورة. لم نشمت من موتى اليابان لأننا كنا ميتين بشكل أو بآخر .

حين أخبرت والدتي بالخبر، ظل وجهها دون تعبير واضح. لم تفرح كما كنت أتصور، ولم تعلق. كانت قد هرمت وابتعدت كثيرا عن الواقع .

أتذكر جيدا وجه أمي الآن، فقد كنت الأقرب إليها في العائلة، وأسلمت روحها بين يدي. أتذكر ملامحها جيدا. أول كتاب نقرأه هو وجه الأم . أتذكر كومة صغيرة من العظام ملتصقة بفرن المطبخ. تعد الطعام للجميع. ننام ونتركها في المطبخ. نستيقظ ونجدها في المطبخ. أكاد أجزم أن تلك المرأة لم تفعل شيئا في حياتها غير الطبخ. متى إذًا كانت تنام مع أبي؟ كيف جئنا إلى هذه الدنيا؟ لم أرَ والدي يقترب منها أو يناديها باسمها . علاقة قد تبدو غريبة الآن، لكنها كانت عادية في ذلك الوقت .

حين فقدتْ الذاكرة. بدأت تنادي والدي الميت. وتسأل عنه، كأنه والدها هي كذلك : «هل تعشى أبونا؟ هل خرج أبونا؟ هل عاد أبونا؟ ».

في آخر أيامها لم تتوقف عن طلب العودة إلى قرية جسر ثشو لانْغ، وهو ما كان صعبا تحقيقه. كنت وحيدة بلا عائلة ولا إمكانيات مادية .

سايغون.. ربيع 1954

في غمرة حب عارم أعمى بصيرتي، لم أسْعَ إلى معرفة الكثير عن الرجل الذي أحببته. محمد كان قليل الكلام. لم يتكلم كثيرا عن عائلته ولا عن بلده ولا عن ديانته، ولا عن ملابسات التحاقه بالجيش الفرنسي. كما لم نتكلم معا، عن مستقبل علاقتنا إلا بعد شهور من اللقاء الأول. كان ذلك بمناسبة أعياد رأس سنة 1954. كان محمد في إجازة بالمناسبة. حين اتفقنا على العودة معا إلى بلده والزواج هناك .

المعركة الأخيرة الحاسمة، التي حدثني عنها محمد، كانت هزيمة نكراء للجيش الفرنسي، وكان محمد ضمن الأسرى الذين أسرهم جيش الفيتْ مينْ بقيادة الجنرال «ناجْوينْ جْيابْ» في معركة «دْيَانْ بْيَانْ فُو ».

انتظرت عودته مع الأسرى المفرج عنهم بعد معاهدة جنيف. لكنه سجل في عداد المفقودين. وَسَّطْتُ أصدقائي في الكنيسة، وقدمت الكثير لمعرفة مكانه. اتصلت بمعارف فرنسيين، من أيام ملهى لِي بْرانْسِيسْ، ليتقصوا لي أخباره .

وقعت في حيرة من أمره، لأن مجموعة كبيرة من المغاربيين التحقوا بالفيتْ مينْ، بعد أن أقنعهم الشيوعيون بعدم شرعية حرب يخوضونها نيابة عن بلد

يحتل وطنهم، وضد شعب يرزح مثلهم تحت الاستعمار. والبعض فروا من ساحة المعارك والتحقوا بأوطانهم عبر بلدان مجاورة. بدأ الشك يراودني في مدى صدق محمد. هل اختار محمد التخلي عن الحرب في صفوف الفرنسيين، والتخلي بذلك عن وعده لي بالزواج؟

غياب محمد ولَّد لدي شعورا باليتم والوحدة. بالإضافة إلى عملي في محل الأحذية، شغلت نفسي بالعمل التطوعي في الكنيسة. لكن كل هذا لم يهدِّئ قلقي وحيرتي. في بعض الأيام لا أعود إلى بيتي مباشرة، أعرج على مركز البريد، فقط لأجلس في القاعة الكبيرة على كراسي الانتظار الخشبية، كما لو أنني أنتظر حوالة أو رسالة من محمد. أتأمل الخرائط المعلقة، وأحدق في الساعات المختلفة الأوقات، حسب البلدان. أركز على الساعة التي تشير إلى توقيت باريس، وأعد فرق التوقيت. وأتخيل المدينة نائمة أو مستيقظة .

لم أقترب طيلة وجودي في سايغون من أماكن تجمع الصينيين، خصوصا منطقة «شُولُونْ» في ضواحي المدينة، إلا حين غابت أخبار محمد. وذهبت إلى معبد «ثْيَانْ هُو»، سيدة السماء وحامية البحارة والغائبين، لأصلي من أجل عودة محمد. أحرقت الكثير من البخور في الموقد وقدمت أجود الفواكه والزهور .

وأخيرًا، استجابت «ثْيانْ هُو» لصلواتي. توصل الصليب الأحمر، بعد سنة من الغياب، إلى أن محمد مازال على

قيد الحياة. فقد جرح في المعركة ونقل ضمن الجرحى إلى وسط الفيتنام. وسَّعْتُ دائرة اتصالاتي إلى أن حدد مكان اعتقاله، وأفرج عنه .

عاد محمد رجلا آخر، بجسد نحيل والكثير من ندوب الجسد والروح، لكنه التزم الصمت، لم أعرف شيئا عن تلك الفترة إلا فيما بعد. ورغم ذلك، سار محمد في العرض العسكري للمشاة، الذي أقيم كوداع خجول للفرنسيين في سايغون بعد قرابة قرن من وجودهم. في ذلك اليوم عرفت شوارع سايغون احتفالات ورقصا حتى الصباح .

كنا ضمن آخر المغادرين إلى فرنسا. آخر صورة بعثْتُها لجْينْ مَيْ، كانت صورتي أنا ومحمد أمام كاتدرائية نُوتْرْدَامْ بسايغون وأنا في سن الثالثة والثلاثين. وراء الصورة كتبت لها: «لا أعرف متى ولا كيف سأتصل بك من ذلك المكان البعيد. لكنني أطمئنك أنني ذاهبة لبلد لا حرب فيه. أنا سعيدة وقد وجدت مرفئي الأخير ».

نانجينغ.. ربيع 1946

انتقلت قوثشينْ مع الأسرة الفرنسية إلى الفيتنام .
أمضت شهورا في انتظار اليوم الذي تحزم فيه العائلة الفرنسية حقائب العودة إلى فرنسا، لبداية حياة لا تأكل من الموت، كما وعدها رب الأسرة. كانت حجة تأخير السفر جملة تكررت على مسامعها من خلف الأبواب المغلقة: «إنها الصفقة الأخيرة وترحل العائلة ».

هذا ما أخبرتني به في الرسائل القليلة، التي بعثتها لي، ملحَّةً عليّ ألا أخبر والدتي بالتفاصيل. لخصت لي حالتها السيئة حين كتبت تسألني، إن كنت أذكر صراخ المرأة الآتي من الجبل وهي تطلب النجدة، ونحن في مركب الصيد الذي أبعدنا عن القرية. أخبرتني أن صدى ذلك الصوت في فراغ الليل لا يزال يتبعها مهما ابتعدت .

بدأت رسائل قوثشينْ تتباعد، وامتلأت السطور والكلمات بالمرارة والخيبة. إلى أن وصلتني رسالة تخبرني فيها، بكلمات وجيزة، أنها تزوجت عسكريا مغربيا في الجيش الفرنسي. أحد المجندين من مستعمرات فرنسا. لأول مرة أعرف من رسائل أختي بلدا اسمه المغرب، بلد بعيد جدا في أقصى الغرب. يبدو أن قوثشينْ تغيرت كثيرا كي تتزوج بجندي، هي التي كانت تحذرني دائما :

- لا تثقي في جندي أو بحار. قلب الجندي كالحرب كر وفر، وقلب البحار بتقلبات البحر .

في آخر رسالة بعثت لي بصورة لها رفقة رجل أسمر وطويل، وأخبرتني أنها سترافق محمد، وهو اسم زوجها، إلى بلده. وأنها
لا تعرف متى ولا كيف ستتمكن بالاتصال بي لاحقا .

لا أحد يعرف عن تلك الفترة من حياة قوتْشينْ في الفيتنام. لكنني كنت أعرف بالتأكيد أن قوتْشينْ حين رحلت من نانجينغ، دخلت نفقا طويلا مجهول النهاية، وأن غصن الصفصاف الذي دسسته في حقيبتها عند الوداع لن يعيدها إليّ .

لم تكن قوتْشينْ أختي فقط، فقد كانت صديقتي وكاتمة أسراري وبوصلتي في الحياة. عشت في هالة ضوئها وحين رحلتْ انطفأ ضوء العالم. ترك غيابها فراغا كبيرا في حياتي لم يَملأه سوى ولادة ابنتي التي سميتها نفس الاسم قوتْشينْ .

ابنتي قوتْشينْ ورثت، بالإضافة إلى الجسد المتناسق، ذكاء خالتها وإحساسها المرهف. رغم صغرها كانت تدرك حاجتي لنصفي الثاني ورغبتي في الحديث عن أختي. فتسألني دائما وهي تقلب صور العائلة من هذه؟ فأجيب خالتك. وتسألني أين هي، لأعيد على مسامعها نفس الحكاية. أجلسها في حضني، وآخذ مجسم الكرة

الأرضية بين يدي، وأضع إصْبَعي على نقطة صغيرة شمال القارة الإفريقية، عند ملتقى البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وأقول لها: هنا تعيش قوتْشينْ خالتك، وتصر على السؤال : هل هي معزوفة مثلي؟ وكيف وصلت إلى ذلك المكان؟ كنت أسايرها وأحكي لها ما تريد أن تسمعه :

- كانت معزوفة جميلة مثلك، أحبت الغناء والتحليق عاليا، طارت فوق بلدان كثيرة إلى أن تعبت وحطت في ذلك البلد البعيد .

قبل أن أنفجر بالبكاء، تدير ابنتي الكرة بيدها، وتقيس المسافة بأصابعها الصغيرة وببراءة الأطفال تطمئنني :

- انظري، خالتي ليست بعيدة جدا، بيننا وبين المغرب عشرة أصابع فقط. المشكل فقط في عمق البحر .

كان الشبه كبيرا بين ابنتي قوتْشينْ وخالتها. وكنت أحدق فيها لعلِّي أجد بها بعضا من روحها. لكن ابنتي كانت لها روح هادئة وقنوعة .

كنت أبكي بحرقة، ليس شوقا لأختي، وإنما لما كنت أسمعه عن ذلك البلد، أن المرأة لا تخرج إلا مرتين، مرة إلى بيت الزوج ومرة إلى القبر .

كلما أعدت على قوتْشينْ الصغيرة حكاية خالتها، أغير جزءًا أو أسقط جزءًا من الحكاية. تنبهني ابنتي

وتصحح لي.. في النهاية بدأت الأحداث تبتعد وصورة قوتْشينْ تبهت في ذاكرتي. أصاب بالخوف من نسيان ملامحها، فأحدق في المرآة لأستعيدها في وجهي. مستحيل، وجهي تغير كثيرا، تجاعيد الحرب كانت أكثر من تجاعيد الزمن .

كي أسمي ابنتي على اسم أختي قوتْشينْ، كان يلزمني تحدٍّ كبير لعائلة زوجي ونقاشات مطولة. فمن المفروض أن تحمل مولودتي الأولى اسم جدتها لأبيها، وهذا ما توارثته العائلة منذ قرون .

سَانْ ليفْرادْ سُورْ لُو (فرنسا).. شتاء 1956

الرحلة بين سايغون ومرسيليا كانت طويلة ومتعبة .
لاحظ محمد على وجهي سحابة حزن وتوجس من الآتي. لكنه كان يطمئنني بين الفينة والأخرى بأنها ستكون بداية حياة سعيدة، وبأن الإحساس بالغربة والضياع سيختفي، لأننا سنكون بين الأهل ووسط العائلة، وبأن المغاربة شعب مضياف والروابط الأسرية صلبة، أكيد سيدعموننا كي نمر من مرحلة الضياع.
والأهم من ذلك، ظل يكرر لي، أنه بلد
بلا حرب ولا خوف. حينها، كان همي الذي لم أعلنه:
كيف سأعيش بلا حرب، أنا التي عشت جزءا من الطفولة وجزءا من الشباب أراوغ الحياة تحت وابل القصف؟

حين وصلنا إلى فرنسا كانت، هي كذلك، تستيقظ من كابوس الحرب العالمية الثانية في أوروبا، وكانت عائدة من آسيا بعساكر مهزومين وجرحى، وجيش من المتعاونين المفرنسين من مستعمراتها .

صُدم القادمون بكذبة الحلم الفرنسي، وبأنهم ليسوا سوى عبء ثقيل على بلد خارج من حرب بلا غنائم .

أنا ومحمد لم نهتم كثيرا للأمر، لأننا كنا مجرد عابرين نحو بلد آخر. لكن الحالة الصحية الجسدية والنفسية لمحمد، كانت تتطلب تأخير عودته لبلده وخضوعه لفحوصات نفسية وجسدية تبرر تقاعده المبكر وحصوله على تعويض إضافي .

صباح وصولنا إلى ميناء مرسيليا. شحنونا كالبضائع في شاحنات، ووزعونا على مخيمات. كنت أنا ومحمد من بين الذين أقاموا في مخيم سانْ ليفْرادْ سُورْ لُو .
أعطونا غطاء، وكأسا، وصحنا، لكل واحد. تُرِكْنا لحالنا في مجمعات سكنية معزولة تشبه الثكنات العسكرية. ننتظر صدقات الجمعيات والمساعدة الاجتماعية .

لم يكن مخيما، كان عبارة عن ثكنة في الخلاء. مجموعة عنابر مسقوفة بالقرميد، تفتقد لمرافق الصرف الصحي . كنا رجالا ونساء جيء بهم من مدينة إلى قرية، حملوا معهم صورهم وذكرياتهم وصلواتهم. أغلبهم لا يعرف لغة البلد .

ظلت حركتنا مقيدة، لا نتحرك إلا بأمر من إدارة المخيم. لم تمض سوى أيام وطالبونا بالعمل في الحقول، مع استثناء الجرحى والمعطوبين والحوامل. تأتي الشاحنات كل صباح لتأخذنا إلى الحقول، لجني الفاصوليا والبازلاء .

وزعوا منشورات تخبر الوافدين الجدد بأن الأطفال غير المعمدين، ليس لهم الحق في ولوج المدارس. كما فرض عليهم دفن الأموات بالطريقة المسيحية. فكانت بداية تمزق جيل كامل من الأبناء عاشوا في المابين .

أقمنا ست عائلات في عنبر واحد . في السرير المقابل كانت هناك أم عزباء وطفلة ذات أربع سنوات. تعاطفت مع الأم التي جاءت تبحث عن والد الطفلة الفرنسي. وكنت أعتني بالطفلة حين كانت تذهب الأم للعمل في الحقول. وأنا أمشط شعرها اكتشفت أن للطفلة أذنًا واحدة فقط . لم أسأل والدتها، التي كانت تغطي أذن الطفلة بالشعر، عن كيفية فقدان الطفلة لأذنها. كان من الواضح، أنها أثر شظية . لم تتكيف الطفلة مع وضعها الجديد. كانت تبكي طول النهار، وفي الليل تظل عيناها تلمعان في ظلمة العنبر .

كل هذا فاقم الحالة النفسية لمحمد، الذي لم يتوقف عن شرب الخمر .

لم يطل مقامنا في فرنسا. طلبنا من جمعية إعانة الوافدين من الفيتنام، مساعدتنا على الالتحاق بالمغرب. تكفلت الجمعية بنفقات السفر برا، حتى الجزيرة الخضراء. حيث مكثنا بالجزيرة أياما على الحدود، لترتيب أوراق الدخول إلى المغرب .

كان المغرب أيضا حديث العهد بالاستقلال ولم تتّضح بعد معالم المستقبل .

في الباخرة، بين الجزيرة الخضراء وطنجة، أمرني محمد بالالتحاق به إلى مطعم الباخرة حيث كان يسكر، ودعاني للعشاء، رغم أن إمكانياتنا المادية لم تكن تسمح بهذا البذخ. على مائدة العشاء، ملأ كأسي، وبلهجة لم أعهدها فيه أخبرني: «هذا هو خمرك الأخير. هناك، وأشار في اتجاه الجنوب، ممنوع على المرأة أن تشرب الخمر ».

في تلك الرحلة، سطر لي محمد حياتي في المغرب. أخذ مني وعدا بعدم العودة إلى بلدي، إذا رزقنا بأبناء، مهما كانت الظروف. حدثني لأول مرة عن عائلته، وعن كيفية التحاقه بالجيش .

محمد من أسرة فلاحين من أوْلادْ حَدُّو، نواحي الدار البيضاء. لكن والده كان يصر على أن يتعلم أولاده الذكور، ليصبحوا موظفين في الدولة. كان حلم الوالد أن يرى أحد الأبناء معلمًا والآخر شرطيًا. وكان محمد هو من روهن عليه ليكون معلما. باع الوالد قطعة الأرض، والتحقت كل العائلة، ثلاث بنات وولدان، بمدينة الدار البيضاء ليكونوا قريبين من المدارس، وتتاح لهم فرص أكثر في الحياة .

لم يمنع الوالد انضمام الابن الأكبر إلى صفوف جيش المستعمر الفرنسي. أن يكون ولده شرطيا أو عسكريا لا فرق بالنسبة إليه، كلاهما مفخرة للعائلة .

شارك الأخ الأكبر في عدة جبهات مع الجيش الفرنسي، ومات في معركة ما في أوروبا. لم تعرف العائلة مكان الوفاة، ولا كيف مات .

حصل محمد على الشهادة الابتدائية. ورغم معارضة والديه اللذين فقدا الابن الأكبر في الحرب، التحق محمد بدوره بالفيلق الرابع لجيش المشاة الفرنسي. قضى سنتين في التدريب بالمغرب، وأرسل إلى الفيتنام .

«كنا من جميع المستعمرات بيضا وسودا. لم نكن نختلف عن خيول مسرجة. ألبسونا بذلة عسكرية، وأعطونا بندقية ريمِغْتونْ وحزامًا من الرصاص. ووضعونا في مواجهة العدو»..حكى محمد والدموع في عينيه .

في تلك اللحظة بالذات، أدركت أنني عدت برجل معطوب جسديا، أكثر من رصاصة اخترقت جسده، ونفسيا لما عاناه في المعارك. لكن إحساسي أنبأني بأن معاناة الأسر كانت أعمق وأشد من معاناة المعارك. وعيت الورطة التي سأعيش فيها، ومع ذلك كنت مستسلمة لمحمد، قدري .

هل كنت أتبع محمد بحثا عن حلم آخر، لأنه لم يقنع طموحاتي كزوج، أم هو إغراء يناديني ويتحكم في مسالك حياتي .

تأملت مقدمة المركب وهي تشق البحر موجة بعد أخرى، كما تُشق حياتي وتُقسَّم نفسها إلى حياتين .

رائحة السمك، ودفقات الماء على جنبات المركب، عادا بذاكرتي إلى رحلتي الأولى من قريتي جسر تْشو لانْغْ إلى الجبل الأحمر. تذكرت قعر مركب الصيد الصغير، وصناديق السمك الفارغة، وبكاء جُينْ مَيْ، ووجه والدتي وقد علته صفرة الخوف. تذكرت إحساسي المتفائل والمغامر حينذاك. إحساس يختلف عن إحساسي بالخوف والحزن وأنا في طريقي إلى المغرب، رغم أن المركب كبير، وفستاني أنيق، وحذائي أسود لامع بكعب عال، وشعري مصفف بعناية .

ثملت ليلتها، ومارست آخر جنوني. خلعت حذائي، وصعدت المائدة وأنا أحمل كأسي، وصرخت بصوت عال أجفل الحاضرين: «هذا المساء أعلن لكم موت قوتْشينْ ».

نانجينغ.. ربيع 1948

عائلة زوجي من العائلات المعروفة، لم يلطخ شرفها لا بخيانة
ولا بفضيحة أخلاقية. عائلة عريقة سكنت نانجينغ جيلا بعد جيل، منذ أن كانت المدينة عاصمة إمبراطورية. اشتغل جل رجالها بالجيش. منهم من وصل إلى مراتب عليا، ومنهم من قدم حياته في سبيل الوطن. رغم أن هذه العائلة - وقت تزوجتُ أكبر أبنائها - كانت قد فقدت وجاهتها والكثير من ثروتها. فلم أكن سأجد أفضل وأكثر وطنية من هذه العائلة لأمسح العار الذي لوث اسمي، بفرار ذلك القائد العسكري الجبان، الذي لا أعرفه، من ساحة المعركة. طيلة سنوات زواجي، عشت بينهم مطأطئة الرأس، لم يكن يحميني سوى احترام زوجي ومودته .

هل قلت المودة؟

زواجي لم يخضع للمعايير التقليدية، أن تخطب الفتاة وتلتحق ببيت الزوج وهي صغيرة. الشيوعية، كما الحرب، غيرت كل شيء، حتى الأعراف والتقاليد التي عرفها المجتمع الصيني منذ قرون. في نفس الوقت لم يكن زواجي عصريا، كنهاية لقصة حب وشغف. تعرفت على زوجي في بيت صديقة مشتركة، تنظم في بيتها جولات من لعبة المَاهْ جُونْغْ. دعتني مصادفةً لأنهم كانوا

في حاجة إلى لاعب رابع لإتمام نصاب اللعبة. لعبة كنت أنا كذلك مولعة بها .

طريقة اختياري لزوجي، لم تختلف كثيرا عن طريقة أمي وجدتي. إذا استثنيت ذلك اللقاء الوحيد، وتلك اللمسة العفوية بين أيدينا، من تحت مائدة اللعب، وهو ما كان غير مسموح به، لأمي وجداتي قبل إجراءات الزواج .

لم يتطلب الأمر الكثير من الجهد والكلام، لنتفق أنا وتشونغ على شراكة زواج شبه مرتب. كانت نهاية حرب، وكل يسعى لإعادة تشكيل حياته .

الحالة النفسية المتأزمة للمجتمع بعد الحرب، لم تكن تشجع على العشق والقبل. تواعدنا، أنا وزوجي، مرة واحدة للنزهة في الحدائق المجاورة لضريح صُنْ ياتْ سِنْ، وتأمل المدينة من أعلى الجبل. لم أعرف الكثير عن شخصيته قبل الزواج. فقد حصن دواخله بالصمت وقلة الكلام. لم يُظهر غضبه ووجهة نظره في الأحداث، إلا مرة واحدة طيلة سنوات زواجنا. حين احتد النقاش بينه وبين أحد رفقائه في السلاح، حول مشروعية الاقتتال، وخاطبه بمرارة :

- كم مرة قتلتَ بدم بارد، وبكثير من الفخر؟ هل تظن أن التجنيد لم يغيرك؟ ماذا يفعلون في الثكنات غير إفراغ الروح من إنسانيتها، والعمل على إنزالها للحضيض يصل

إلى مرحلة الافتراس. إنه تدرج البشر من الإنسان إلى الوحش. لا يعود الإنسان من حرب إلا جثة فارغة .

يقال إن للتوأم نفس الشخصية والمزاج. غير أنني كنت نقيض أختي قوتْشينْ، المرأة الطموحة والمغامرة، التي لها استعداد للمقامرة بكل شيء من أجل حلم صغير. كنت أنا قريبة الأفق ودائمة الخوف .

بينما كنت أرى أن الحب الهادئ والرصين هو مفتاح سعادة المرأة، كانت قوتْشينْ ترى أن جسد الأنثى هو مفتاح سعادتها: مفتاح لحياة رغدة، فساتين جميلة، بيت فخم، ووجاهة. وأن هذا الجسد هبة إلهية عوَّض بها الخالق المرأة عن هشاشتها لتكون قوتها الخفية. وهو الهبة الوحيدة التي وهبها الله للأنثى بشرط أن تحسن استعمالها، فالجسد قطعة بلور نادرة إن أسقطتها الأنثى ضاع كل شيء .

لم أعط لنفسي فرصتها. سرعت إيقاع حياتي بين التاسعة عشر والرابعة والعشرين، بطريقة لا مبرر لها، فقد كانت لي اهتماماتي، عملي، جمالي، شبابي ... كل المعايير والمقاييس لأضعني على سكة أخرى - كما فعلت أختي - أكثر مغامرة ودهشة، وأبعد قليلا من بيت يضم زوجا وأولادا، وحياة روتينية تأكل أيامي بهدوء ورتابة يوما بعد يوم .

طالما هاجمتْ نفسي بأسئلة مستنكرة :

ماذا لو كنت أعطيت نفسي فرصة الخطأ والتعثر، أو حتى الضياع؟ ماذا لو حِدْتُ عن الخط المستقيم الذي رسم لي ولأمي ولجداتي من قبل؟ هل كانت حياتي ستكون أجمل وأكثر إثارة؟ ماذا لو حاد قطاري عن السكة، ووجدتني في بلد آخر مع أناس آخرين، وزوج آخر، وسرير آخر أكثر إثارة؟ ماذا لو أخطأت الطريق ونسيت العنوان، صادفت قدرا آخر وذهبت معه؟ كيف كان سيكون شكل الحياة؟

لو لم أكن جبانة، ودخلت الممر المعتم، هل كان سيؤدي بي إلى الضوء؟

كل هذه الأسئلة نبهتني إلى أنني أبقَيْت داخلي نصفي الآخر، رغباتي الأخرى وأمنياتي، وأنني -طول حياتي- كنت أخبئ قوتْشينْ في داخلي. لو ظلت قوتْشينْ بيننا، لما استمرت مسرحية زواجي طويلا. كانت حتما ستحرضني على الطلاق. ولم أكن لأقاومها، فأنا كنت دائما تحت تأثيرها .

لم أبح لأحد بتساؤلاتي، كما لم أبح بحبي الأول والوحيد. كان ذلك يخجلني، لأن الفتيات تربين على الصمت والسكوت، وعدم إبداء الرأي والملاحظة. جبلن على الكتمان وإخفاء المشاعر . ثم إن أسئلة كتلك كانت ستضعني موضع شك وريبة، لأن زواجي أمام الناس كان مثاليا يكاد يكون كاملا .

أعطتني الآلهة كل ما طلبته، إلا حبا شغوفا لرجل، منعتني إياه لحكمة في الأمر، وحدها الآلهة تدركها .

أعرف أنني لم أكن مثيرة مثل قوتشين، و لم تكن لي فرصة الاختيار كباقي الفتيات. لم أضع مواصفات لرجل المستقبل، كأن أقول مثلا: أريده أن يكون قويا أو ضعيفا، طويلا أو قصيرا، أو أتمنى أن يكون ثريا. لقد سقط علي زوجي كالقدر. وجدتني وأنا في سن الرابعة والعشرين أصطدم بشخص ودود، وأنا أبحث عن زوج، حتى ولو كان بدون مميزات، قبل أن يفوتني القطار . هكذا، بدون مقدمات. حتى حين بدأت أصحو من الدهشة الأولى، لم أحاول أن أغير الاتجاه، ليس خمولا وعدم رغبة في المغامرة، وإنما إيمانا بالقدر .

طيلة سنوات الزواج ظلت سعادتي عرجاء . جزء مني مبتور. تبدى ذلك جليا في فقدان رغبات كثيرة : الرغبة في الخروج من البيت، الرغبة في ربط صداقات، وخمول ذهني يؤدى إلى اكتئاب يصيبني بين الفينة والأخرى. يبدأ غالبا بألم نصفي في الرأس حير الأطباء، وينتهي بإغلاق النوافذ، إسدال الستائر، ورغبة في البكاء لا تفسير لها. تتنمل أطرافي وأفقد الإحساس برأسي. زوجي كان يشاكسني : «ليس مرضا ما بك، لقد رأيتِ الكثير من الرؤوس المقطوعة في طفولتك، ومن الطبيعي أن تفقدي الآن الإحساس برأسك، وبثباته فوق كتفيك ».

الدار البيضاء.. ربيع 1957

مت في الثالثة والثلاثين من العمر. عمليا انتهت حياتي حين وطِئَت قدماي درج الباخرة المتجهة إلى المغرب . أسقطتني الحياة من حسابها يوم ركبت البحر. البحر الذي حلمت به طويلا .

طوحت بي الحرب أبعد مما خمنت .

ما عاد يهمني أين سأكون ولا مع من، بعد نهاية الرحلة والوصول إلى المرفأ الأخير. فأنا عشت حيوات كاملة. واختصرت العمر في ثلاث وثلاثين سنة وأنهيته برحلة على باخرة .

لدي الآن ما يكفي من الذكريات الجميلة والكئيبة لأجترها في فراغ حياة أخرى .

شربت الحياة رشفة واحدة، ولم أُبقِ في الكأس ما يسقي ظمأ الكهولة. الشبق والرغبات المجنونة في تذوق كل شيء: الحلو والمر، الحزن والفرح، الألم والمتعة.. ذلك كله استنفدني .

لم أبك كثيرا على ما فقدته، ولم أفرح كثيرا بما كسبته. أنضجتني الحرب ووعيت لعبة الحياة مبكرا، الخسارة والربح شيئان ضروريان لتوازن الحياة .

من قال إن ثمار الجسد تنضج في الثلاثين من العمر؟ الثمار قد تسقط قبل النضج إذا تعرضت الشجرة لرياح قوية، قد تبقى الشجرة عارية تماما حتى قبل حلول الخريف. وهذا كان مصيري. عرضت جسدي لهزات قوية نتيجة مغامراتي، وفي رحلة هروب مستمر من نفسي ومن الحرب تساقطت أفناني قبل أن تتفتح البراعم .

الخطأ الذي ارتكبته لم يكن أفقيا، بل كان عموديا، تمثل في تصعيد لحظات السعادة بقدر لحظات الحزن، وفي ذروة أحدهما فقد الآخر معناه. فحكمتُ عليّ بالمنفى .

باختياري المنفى، هل كنت أعاقب نفسي على تهورها وابتعادها عن عائلتي، مبادئ ديني وقيم الأسلاف؟ هل كنت أعاقب جسدي لأنه خانني مبكرا وما صدقت إشاراته ولا تنبيهاته؟ أم كنت أعاقب الحياة بتجاهلها والعيش في موت مؤجل؟

جئت إلى المغرب روحا ميتة وجسدا منطفئا، ناري تركتها هناك، ولم أحمل سوى الرماد .

لم يدرك زوجي، وهو يحاول جَرّي إلى حياته في المغرب، أن غربتي ليست مكانا، وأنني أحمل غربة فظيعة ومزمنة في داخلي. فقد تغربت في وطني الصين، يوم استعمل حبيبي الأول جسدي طعما لعدوه في الحرب. تغربت عندما رحل تاجر السلاح الفرنسي

وتركني ضائعة في الفيتنام. تغربت في سايغون، صباح اختفاء مصور الحرب الإسباني دون كلمة وداع. تغربت يوم ودعني عاشق دون أن يطلب مني موعدا آخر. تغربت يوم نام رجل في سريري ليلة كاملة معانقا بندقيته مستعرا من جسدي. تغربت في أسرة جنود ذاهبين إلى ساحات المعارك برغبة القتل، عائدين برائحة الدم والبارود، وبشراسة الانتقام ختموا هزائمهم على جسدي الضعيف.. تغربت في حروب لم تكن حروبي، في لغات ليست لي، في اللغة الفيتنامية، الفرنسية، العربية .

هناك غربة خاصة بالنساء لا يعرفها الرجال. غربة المرأة حين يستباح جسدها ولا تملكه، وحين يتخلى عنها نفس الجسد ويفقد سلطته على الحياة. آنذاك لا تكفي كل بلدان العالم لتكون وطنا لها. فتعيش منفية في كل الأوطان. بل كل مرايا الكون لن تقنعها بجمال يستحق الحياة .

الدار البيضاء.. خريف 1957

أول عقبة واجهتني في المغرب، هي مشكل اللغة، خصوصا مع أفراد عائلة محمد التي رفضتني رفضا باتا. لم يكونوا متشددين دينيا، الكثير من نساء العائلة لا يلتزمن بطقوسهن الدينية، إذا استثنينا صيام رمضان. لكن امرأة بوذية لم تدخل قاموسهم من قبل. كانوا سيقبلون مسيحية، أنا لست من أهل الكتاب .

استبدلوا اسمي بزهرة. وهو ما لم أقبله بتاتا، فاسمي هو ما تبقى لي من حياتي السابقة. غضبت. تعلل محمد بصعوبة نطق قوثشينْ بالنسبة لوالديه. لكنني حرمت عليه، هو بالذات، أن يناديني باسم غير اسمي .

كان من الممكن أن أتواصل بالفرنسية في الشارع، لكنني لم أعد في حاجة إليها إلا لقراءة الجرائد التي يدمن محمد شراءها، فخروجي إلى الشارع في البداية كان يعادل خطيئة العصيان الزوجي. كما أن لباس الجلباب الذي فرض علي أول الأمر، لم يكن مريحا لامرأة تعودت القميص والبنطلون الواسع .

البداية كانت صعبة. في نهاية الخمسينيات كنتُ حالة من الحالات الغريبة في المجتمع المغربي، قبل أن يعود العساكر المغاربة الذين هربوا من الجيش الفرنسي للقتال في صفوف الفيتْ مينْ. والذين بقوا أكثر من

عقدين يطالبون بالعودة إلى وطنهم. تزوجوا، وقتها، وأسسوا زيجات بنساء فيتناميات. انتظرت حتى بداية السبعينيات، وقت عودتهم من الفيتنام، بزوجات فيتناميات احتفظن بزيهن، لأجد الشجاعة للعودة إلى زيّي .

أخوات زوجي كانت أحكامهن عليّ أقسى. لا يترددن في استفزازي بأسئلة تتضمن الإهانة والاحتقار: كيف تطبخون في الصين لحم الكلاب والقطط؟ هل تحمِّمون بوذا . كما كن ينفرن مني في الحمام المغربي العمومي .

تذكرت حينها بعض ما تعلمته من جارتنا المسلمة في قريتي جسر ثْشو لانْغْ. وحاولت تطبيقه للتقرب من العائلة. أعلنت إسلامي .

في الأخير اقتنعت بأنهم بدو منغلقون، وأنني مهما حاولت فأبوابهم مغلقة دوني. لن أكون سوى تلك الغريبة القادمة من بلد يأكل فيه البشر الكلاب والضفادع وقوادم الدجاج .

حب محمد لي لم يكن كافيا لحياة طبيعية في وسط يرفضني. ذلك الصراع مع العائلة استنزفني أكثر وأدخلني في صمت ثم في اكتئاب .

اكترى محمد سكنا غير بعيد عن عائلته، في حي درب الطالْيَانْ. عرف هذا الحي، حينها، بتجمع للأجانب من

فرنسيين وإسبان وإيطاليين، من مختلف الديانات، مسيحيين ويهود ومسلمين. كان الحي الأنسب لعائلتنا المختلطة. لم أغيره طيلة وجودي بالمغرب . حاولت الاندماج بين الجيران وخلق علاقات مودة وصداقة مع الجارات. لكن تلك العلاقات ظلت محدودة. لم تصادقني سوى جارة فرنسية عجوز، تسكن الطابق السفلي من العمارة. توفي أحد أبنائها في حرب الفيتنام. وجدت فيّ الجارة رائحة البلد الذي لفظ فيه ابنها أنفاسه الأخيرة. أحاديثنا كانت كلها حول الحرب وعن الماضي، كنا نختلف على مدى مشروعية تلك الحرب للجيش الفرنسي، ليس هناك فرق بين الياباني الذي غزا بلدي والفرنسي الذي غزا الفيتنام . لم تكن الجارة الفرنسية مقتنعة تماما، لأن الفيتنامي دافع عن أرضه، وابنها كان ملزما بالدفاع عن شرف البذلة العسكرية .

الحديث مع الجارة الفرنسية، لم يساعدني كثيرا على الاندماج في الواقع الجديد. في المساء كنت أنقل الأحاديث التي تدور بيننا لمحمد، فنصحني أن أختار صديقة أخرى في سني، وبعيدة عن أجواء الحرب. قال لي: «تخطي كل هذا وإلا سيبتلعك الماضي وتنهكك الذكريات ».

لم تدم تلك الصداقة الوحيدة، فقد عاد أحد أبناء كاترين، وأخذها رغما عنها إلى فرنسا، لتكون قريبة من العائلة . وعدت، أنا، إلى عزلتي .

فور استقرارنا في المغرب، تقدم محمد لامتحان نيل الكفاءة التربوية، والتحق بالتعليم الابتدائي. كان المغرب في حاجة لشبابه المتعلمين لملء الفراغ الذي تركته الأطر الفرنسية بعد الاستقلال . وحقق محمد حلم والده .

النصيحة التي زوّدني بها محمد، نسيان الماضي، لم يأخذ بها هو نفسه. فقد ظلت أشباح الحرب تلاحقه. حاول أن يقاوم من أجلي، لكنه في لحظة هشاشة عادت الكوابيس تقض مضجعه، وعاد إلى الحانة لينسى. ما لم أكن أعرفه، أنه أدمن الأفيون في مرحلة ما من إقامته في الفيتنام. واستبدل به في المغرب حشيش الكيف. كان يعمل نهارا في مدرسة ابتدائية للأولاد. يعود فقط للغداء، أما باقي المساء فيقضيه في حانة مجاورة. وبدأ يبتعد عني، وكان هذا سببا آخر لوحدتي وللعودة إلى دواخلي وذكرياتي .

أصبح محمد منفاي بدل أن يكون وطني. لم يتبقّ لي سوى الفراغ واللامبالاة. لم تساعدني الولادتان على استعادة إحساسي بمحيطي ومشاعري الإيجابية. بل تفاقم الإحساس بالذنب تجاه أطفال نأتي بهم إلى حياة غير آمنة وعالم لا يتوقف عن الاقتتال. ابني وابنتي لم يعنيا لي شيئا فور انفصالهما عن جسدي. تسلمت والدة محمد تربيتهما والعناية بهما، لأنني، في نظرها، لن أقدم

لهما تربية مغربية إسلامية. كان هذا التبرير يريحني أكثر مما يغضبني .

في أقصى درجات اليأس، طلبت من محمد أن نعود خطوة للوراء، إلى فرنسا، حيث تركت الخيط الذي يقود حياتي. لكنه رفض بشدة لأن المغرب هو وطنه ومنبت جذوره ولن يغادره أبدا. لقد جرب الابتعاد عن وطنه وعن أهله وكانت النتيجة هي ما هو فيه من ضياع نفسي. وعلي أنا كزوجة وكأم أن أكف عن التذمر، وأعتني بالأولاد، فوطني هو حيث يوجد ولداي. ثم ذكرني بالوعد الذي قطعته له، بعدم العودة إلى الصين مهما حدث .

حاولت أن أقنعه أن دائي ليس المكان في حد ذاته. بل أن جسدي يتآكل ويموت من سأمه. ربما لو حررته قليلا من ثقل العادات والجلابيب الطويلة ومن روتينية البيت واشتغلت، سيستعيد بعضا من حيوته .

هل سئمت من اللاحرب؟ من تكبيرات السلام المتدفقة من المآذن في سكون الليل؟ هل سئمت من الدفء والصمت؟ امرأة مثلي ولدت في طشت دم، وعاشت تحت سماء تمطر نارا وقذائف، وطفولة موحلة بغزارة المطر، وبفيضانات نهر اليانغتسي. حين تغضب الآلهة وتسلط علينا الطبيعة، لإهمالنا صلواتنا ونذورنا، التي نقدمها مقابل سلامة الأجساد والزرع والماشية .

لم يمض وقت طويل حتى استسلمت، وتوقفت توسلاتي. توقفت إنزيمات المقاومة في جسدي وأسلمتني للنسيان. كل الوجوه التي عرفتها فقدت ملامحها وابتعدت. كل الأسماء والعناوين نسيتها. الأحبة أصبحوا ظلالا. اسم واحد ووجه واحد لم يبرح ذاكرتي. اسم جْيِنْ مَيْ ووجها. نصفي الثاني الذي لا يفارقني .

ظل الاكتئاب من الأشياء الوفية القليلة التي تأتي في موعدها .

نانجينغ.. خريف 1964

إحساسي الكبير بالمسئولية تجاه العائلة - كما ربونا - انتهى بي إلى تأنيب نفسي على كل سوء يقع في العائلة. أوبخ نفسي إذا تعثر ولداي في دراستهما، أكتئب إذا غاب زوجي عن البيت وأعتبر نفسي المسئولة عن ذلك، لأنني زوجة عاجزة عن توفير جو ملائم يشد الزوج لبيته وسريره. كل تركيزي كان أن أقدم لزوجي أسرة مثالية مستقرة كرشوة لبقائه في البيت. كانت تحضرني العلاقة المفككة بين والديّ. أكاد أن أشكره على بقائه بجانبي ولو بجسده، لأن روحه كانت هائمة في أمكنة أخرى رفقة أشخاص آخرين أجهلهم، ولا أريد أن أعرفهم تحاشيا للألم. إذا تأخر ابني أجلد نفسي لأنني لم أكن حريصة عليه. إذا مرضت ابنتي عَزَوْتُ ذلك لإهمالي. أبرئ الآخرين وأوجه كل سياط اللوم لشخصي. جعلت نفسي مسئولة عن مآسي العالم. وكرد فعل، انساق الجسد نحو هاويته، وغزت الخلايا الخبيثة رئتي .

تقاسمت كل شيء مع حماتي وعائلة زوجي، فقط فراغاتي الداخلية وذكريات الحرب المخجلة، احتفظت بها لنفسي . لم تكن لي الجرأة ولا الحق في أن أطلب من أحد أن يحملها معي. بالإضافة إلى ندوب الحرب،

فحبي الأول ترك ندوبا عميقة على جدار القلب، حتى ولو لم يكن واقعيا ومتبادلا .

لم أكن، أنا وزوجي، في حاجة لردم الهوة بيننا، أو نخفي عن بعضنا بعضا كمَّ الحزن الدفين في أعيننا. كنت روحا مكشوفة أمامه. وكان صمته جدارا شفافا لخيبات لم يستسغها. كمحارب بترت يده في المعركة، لكنه ظل مع ذلك يعتقد أنها مازالت عالقة بجسده. فقط يلزمها تثبيت ما .

وحّدنا الألم وأغرقنا في دمعة واحدة .

زوجي كان حريصا على كرامتي أمام الآخرين. يعاملني باحترام ومودة .

كم مرة أعدت هذه الكلمة، المودة، ولم أقل الحب؟

زوجي كان من الرجال الذين لم يعرفوا الحب إلا مرة واحدة في حياتهم. لم أكن أنا ذلك الحب الكبير. بحدس الأنثى أحسست أن قلب الرجل الذي تزوجته لم يكن لي. وللأمانة، فهو لم يكذب عليّ، لا قبل الزواج ولا بعده. لم يعطني مشاعر مزيفة .

منذ اللحظة الأولى رسم لي خطا أحمر لا يسمح لي بتجاوزه. لدواخله أكثر من باب، أستطيع أن أدخلها جميعًا إلا باب القلب. واحترمت جانب الظل في حياته. لم أسأله عن ماضيه، عن فترات غيابه في حروب

خاضها كعسكري. كما لم يسألني هو عن رجلي الأول. حين تزوجته لم أكن عذراء، وهو ما لا يغتفر اجتماعيا في تلك المرحلة .

كان بيننا تواطؤ غير معلن. لم نعقد ميثاقا بيننا، لكن فترات الصمت الطويلة كانت أوثق ميثاق. الحب ليس هو الشغف، الحب هو الرفقة، هذا ما رسخته أمي في عقلي وأنا صبية. فلماذا أفسد هذه العلاقة الطيبة؟ ستجدون بعض الغرابة في هذا التفسير، لكننا كنا، فعلا، كجندَيِّينْ عائدين من الحرب، نضمد جراح بعضنا بالصمت. نتبادل المودة كما نتبادل كؤوس دواء مر المذاق، لابد منه للشفاء. حافظنا على النوم في سرير واحد، كحبتي قمح ناضجتين، كل كان يحلم بحصاده .

صداقتنا كانت ممتدة في الصمت الطويل بيننا، وفي نزهاتنا المسائية وتأمل غروب الشمس على ضفة نهر اليانغتسي، حين تحسنت أحوال البلد. في خرجاتنا العائلية في عيد القمر أو للاحتفال بعيد ميلاد إله البحر ماتسو، في تربيتنا لطفلين لم يفهما يوما عزلتينا .

هكذا، انسلّت السنوات من بين أصابعي، وأنا جالسة في قاعة انتظار كبيرة. قاعة لم يكن فيها غيري أنا، وبعض الساذجات من أمثالي .

الدار البيضاء.. صيف 1958

في الوقت الذي التحقنا فيه بالمغرب، خطت المرأة خطوتها الأولى نحو الحرية. فعرف لباسها تدريجيا، تحررا من طابعه المحافظ، واقتصرت الحشمة على لباس طويل، جبة دون لثام يغطي الوجه. لكن خروج المرأة من البيت ظل يقتصر، في غالب الأسر، على الزيارات العائلية بالمناسبات وإلى حمام الحي، المتنفس الوحيد للنساء .

حدث مرة أن كنت أستحم في الحمام العمومي التابع لحينا، فانتبهت إلى أن امرأة تحدق فيّ بفضول، وتتتبع حركاتي، محاولة الحديث معي. اعتقدت أول الأمر أنه مجرد فضول أثارته ملامحي الآسيوية، وهو ما يحدث لي غالبا في الشارع، أو أن المرأة من معارف عائلة زوجي . امرأة سمراء وجميلة بوشم رقيق على ذقنها. لكن ما أثار استغرابي وفضولي، هي علامة الصليب الموشومة أسفل ساقها، ووشم لاسم بالفرنسية على صدرها .

في قاعة الاستراحة، بينما أنا أرتدي ثيابي، اقتربت مني المرأة وهي تجفف جسمها وسألتني بفرنسية ركيكة: هل أنت الصينية قوتْشينْ؟ لقد سكنا معا فترة في حي بِنْ ثهانْ في سايغون. أذكرك لأنني رأيتك، أكثر من مرة، في شارع نِيغْوِيانْ هْيُو رفقة شاب مغربي .

فاجأتني، ارتبكت إلى درجة أنني أسقطت الفوطة في دلو الماء أمامي. حقا العالم قرية صغيرة .

ترددت قبل أن أجيب بالإيجاب. فكرت، قبل ذلك، أن أجيب بالنفي .

لكن حنينا ما لتلك الفترة جعلني أؤكد كلامها، فأفسحت لها مكانا بجانبي، وشجعتها على الحديث .

قدمت لي المرأة قطعة من السِّواكْ، كعربون مودة، تركته في يدي. حثتني على أن أمضغه قليلا قبل أن ألمع به أسناني :

- السِّواكْ والكحل من العادات التي نكمل بها طقوس الحمام ..

ابتسمتُ .

- يبدو أنك لم تعودي إلى الصين وتزوجت صديقك المغربي، بْرافُو. غمزت بعينيها ..

أجبت :

- نعم، ولكن ..

قبل أن أبدأ الشكوى، استدركت :

- أنا لم يحالفني الحظ مع الفرنسي، ولن يحالفني أبدا، هنا، بهذه الآثار على جسمي، وأشارت للوشم على صدرها وعلى ساقها.. فسقتُ وعلّمت على فسقي. لكنه الحب .

قالت بحسرة وهي تضرب بكفها على صدرها جانب القلب .

لم أندم كثيرا، لأنني عشت فترة جميلة من الدلال والعز. هو كذلك كان يحبني ويخاف عليّ وعلى فقداني، أقصد بيير صديقي الفرنسي. أصر على وشم اسمه على صدري كي لا يطمع بي فرنسي آخر. كان يغدق على خالتي المال والهدايا كي لا تقدمني لزبائن آخرين.. رغم أن خالتي كانت جشعة فهي لم تجرؤ على مخالفة أوامره، كان ضابطا نافذا في الجيش الفرنسي .

انتهينا من لبس ثيابنا في نفس الوقت. ارتديتُ جلبابي.. ارتدت هي ملحفة بيضاء مع نقاب أسود شفاف ..

ابتسمتْ وهي ترفع النقاب إلى الأعلى، لتخفي جزءا كبيرا من وجهها :

- إنه احتياط واجب، حتى لا يتعرف عليّ أحد معارفي فترة «بُوزْديلْ بُوسْبِيزْ».. الله يُسامِح خالْتي، لو كان ليّ عقل اليوم لما مشيت في هذا الطريق .

فهمت أنها ما زالت تحترف أقدم مهنة في العالم. كنت أعرف أن محمد سيقتلني إذا عرف بحديثي مع المرأة. ومع ذلك مشيت معها في طريق العودة إلى البيت، بفضول لمعرفة المزيد عن نساء المتعة في المغرب .

أثناء الطريق تابعت الضَّاوْيَة قصتها :

- خالتي بدأت عاهرة معروفة في «عَرْسَة مُوسَى» في مراكش . حين أحست أن رغبة الزبائن بدأت تتجه نحو فتيات أصغر منها، اختارتني من بين بنات العائلة في قلعة السراغنة. فحصت عذريتي وأخذتني بحجة أنها تريد أن تعلمني الأشغال اليدوية وعادات أهل مراكش وتزوجني هناك. كنت حينها في سن الخامسة عشرة . في نفس اليوم أقلّتنا الحافلة من مراكش إلى مدينة الدار البيضاء واختفينا نهائيا عن أعين العائلة. أول ما فعلته خالتي حين وصلنا، باعت سوارا من أساورها الذهبية السبع، وقصدت بُورْدِيلْ بُوسْبِيرْ. أعطت كل ثمن السوار إلى حَمُّو الشَّاوشْ، حارس الباب، وادعت أنني في الثامنة عشرة من عمري .

رفعت النقاب الذي سقط عن وجهها مرة أخرى، وتابعت :

بطريقة لم أعرفها أصبحت خالتي، بعد أيام قليلة، مسئولة عن جناح العاهرات اليهوديات المغربيات . في ماخور يتكون من جناحين، واحد للفرنسيات، وواحد

لليهوديات تدس بينهن مسلمات بطريقة غير مشروعة وسرية. خالتي لم تكن ذات جمال. كانت امرأة شديدة السمرة، قوية البنية والشخصية. صارمة في معاملة الفتيات. لم تكن تسمح براحة فتاة إلا أيام الحيض. أما باقي الأيام فعلى الفتاة أن تضاجع حصتها اليومية، عشرة زبائن في اليوم الواحد، وقد تتعدى ذلك، فترة عودة العسكر من الجبهات .

الفرنسيون، وباقي الأجانب، كانوا يفضلون المغربيات على الأوروبيات، خصوصا القرويات الصغيرات. فرغم الخضوع للفحص الطبي الدوري، تظل النساء الكبيرات موضع شك لنقل الأمراض بين الجنود .

حين عاد الضابط بيير من أحد المعارك الجبلية وطلب فتاة، سارعت خالتي لإدخالي إلى غرفته. وأصبحت محظيته ومفضلته بعد شهور .

يوم ألحق هو وكتيبته بالجيش الفرنسي المحارب في الفيتنام، ورغم معارضة خالتي، عمل على تسفيري معه، ضمن مجموعة من الفتيات انتقين من بُورْديلْ بُوسْبِيرْ ومن مواخير أخرى، لمرافقة الجنود إلى هناك .

لكن رصاصة اخترقت أنبوب المنظار وعين وجمجمة بيير، شوهت وجهه الجميل وأردته قتيلا، وهو يراقب العدو قبل أن تبدأ المعركة بدقائق .

كان بي فضول لمعرفة كم بقيت الضَّاوِيَة في سايغون، وكيف عادت إلى المغرب، لكننا كنا على مشارف الزقاق الذي أسكنه، وخفت أن يراني رفقتها محمد أو أحد من أفراد عائلته، وأتعرض لوابل من الأسئلة: من هي وكيف عرفتها وبأي لغة تواصلت معها. فاستأذنت منها بسرعة لم تترك لها فرصة معرفة عنواني وأين أسكن .

لم أخبر محمد بهذه المصادفة الغريبة. الأكيد أنه سيغضب،
ولا أريد أن يمنعني حتى من الخروج إلى الحمام .

الدار البيضاء.. خريف 1970

هناك أمكنة لا ننتمي إليها، حتى لو سكناها عقودا . فلكيمياء الجسد دخل في الموضوع. كما أن هناك أشخاصا لا نعرفهم حتى ولو تساكنا معهم سنوات، فلكيمياء الروح أيضا دخل في ذلك .

تحولت علاقة الحب بيني وبين محمد إلى علاقة شد وجذب، وخلافات تتوالد كالفطر في عائلتنا الصغيرة. لم نكره بعضنا، فقد يكون الإنسان محبا وكارها في نفس الوقت. نتخاصم كثيرا حول النقود التي كان يبعثرها في الحانات. كان يترك لي نصف الراتب كمصروف للبيت والتطبيب، فقد ولدت طفلتي بمرض الربو. والنصف الآخر يبعثره بين الحانات. بينما أنا أدور في الأسواق بحثا عن الأرخص من الثياب والطعام. كان هو خارج حياتنا بسهره في الحانات وإهماله لواجباته الزوجية والأبوية. لا يعرف حتى المستوى الذي يدرس فيه ابنه. لم يكن يعجبني تدخينه لحشيش الكيف في البيت وأمام ولدينا .

لأساعد في مصروف البيت، عدت لأشغال الحياكة وتطريز الخفاف الصينية. أشتري القماش وخيوط الحرير والمواد بما أوفره من المصروف اليومي. ثم أبيع المشغولات لمحلات الجملة في دَرْبْ عُمَرْ .

أحيانا يضع القدر شخصين في مكان ضيق ليمزقا بعضها. وكانت حياتي أنا ومحمد أضيق من خرم إبرة .

في بعض لحظات صمتي الطويل . يتطلع إلي محمد بنظرات تحمل إحساسا بالذنب والاعتذار والريبة أحيانا . أكاد أسمعه يسألني: أين كنت كل هذه السنوات؟ أكاد أتمتم : كنت أبحث عنكَ، وأنت هل كنت تبحث عني وسط خراب حرب لم تكن لك؟

جمعنا بيت صغير لنبلسم جروح بعضنا . رغم أنني لا أعرف الخنجر الذي طعنه ولا يعرف هو الخناجر التي طعنتني. كنت أعرف، فحسب، أن جروحي عميقة، وأنني لن أحاول مرة أخرى تخطي عتبة البيت، ليس خوفا من محمد، ولكنني تعبت وعدت جاثية على قبري. لم أعد أنا ولا عاد هو، عادت فقط جثتانا.. شبحان يتخبطان في ظلمة الحياة .

لم أعترف لمحمد ولا حتى لنفسي، بأنني اتكأت على الجسد وأهملت الروح، جسد بلا بصيرة لا يستطيع قراءة المستقبل . وأنني ضَلَلْتُ الطريق. للتحليق عاليًا ضريبةُ السقوط المميت. مثل كل الفراشات حين تقترب من الضوء تحترق، وأنا اقتربت كثيرا حتى صرت لصيقة بالمصباح، فصيرني رمادا. انطفأت سريعا . كل النساء يذهبن إلى خريفهن ببطء وأنا ذهبت بخطى مسرعة. كل ما يشتعل بسرعة ينطفئ بسرعة .

غير أنني كنت أتشبث بأمل الأحفاد. ليس علي أن
أسقط، حتى تَيْنَع أغصاني أعلى شجرة الحياة .

نانجينغ.. صيف 1990

لم أحاول أن أتحرى أو أعرف المرأة التي سكنت قلب زوجي تْشونْغْ، لم أعرفها إلا بعد سنوات من موتي .

في يوم ماطر شديد البرودة، اخترق برده خزفَ الجرة وجمد رمادي . جاءت ابنة عم زوجي وِي جُو من شنغهاي، حيث تقيم، لزيارة العائلة. كانت تزورنا كثيرا وأنا على قيد الحياة لرؤية حفيدتها، فهي حماة ابنتي أيضا. امرأة جميلة، دائمة الأناقة، لبقة، تحسن إدارة الحديث. حين طلبت مني يد ابنتي قوتْشينْ لابنها لم أتردد .

هيأت قوتْشينْ وجبة عشاء فاخرة. أكلوا وضحكوا ولعبوا لعبة المَاهْ جُونْغْ. وكالعادة ربح تاوْ، زوج ابنتي. في منتصف الليل سمعت ابنتي وزوجها يستأذنان للذهاب إلى النوم. وبقي زوجي ووِي جُو في غرفة المعيشة يتحدثان. لم ألق أهمية للحديث الدائر بينهما. فجأة اتسم حديثهما بالحدة، رغم أن صوتيهما ظلا منخفضين :

...

- لم أتخلَّ عنكِ. أنت التي سلمت نفسك لذلك الأمريكي، كان من الممكن أن يكون منازلي في معركة ما .

- كنتَ بعيدا، ولم تبعث حتى سطرين تسأل عني. لا تنكر أنك كنت حب العمر .

- بالعكس، جازفتُ، وبعثتُ لك رسالة مطولة فور وصولي إلى ساحة المعركة، أبث لك فيها حبي وأطلب منك أن تنتظريني. ما كان هناك شيء يشدني في العالم ويجعلني حريصا على حياتي، أكثر من أمل الرجوع إليكِ. لم أتلق جوابا على رسالتي. انتظرت شهورا معتقدا أن الرسالة وقعت في يد أحد من العائلة، وجربت أن أبعث برسائل إلى أخيك، وكنت أظن أنك بقوة الحب ستقرئين بين السطور، وستفهمين أن الرسائل موجهة إليك. ما كان بإمكاني أن أبعث إليك المزيد من الرسائل الخاصة. تصوري حينها، لو ضبط أبواك رسالة مني، كنت سأنبذ من العائلة وإلى الأبد. وقد يحرمني والدي من الميراث. ماذا كنت سأمثل لك بدون ثروة، أنت التي تحبين المال والعيش برخاء؟

- لست عرافة أقرأ الغيب. لم تبعث إشارة في الرسائل لأعرف -على الأقل-أنني مازلت أعني لك شيئا .

- لا تراوغي، كل تلك السنوات ولم تدركي أنني كنت رحيما بك. لم أخبر أحدا بمغامراتك، وانسحبت بهدوء. فقد كنت من دمي ولم أفضحك. رغم أنني عرفت أنك كنت حاملا من الأمريكي حين تزوجت أخي، نكاية بي .

- تاوْ ليس ابن الأمريكي، هو ابنك أنت .

لحظة صمت طويلة .

صُعقتُ .

تاوْ ابن زوجي؟ يعني أخو ابنتي التي هي زوجته الآن. ماذا تبغي هذه الحمقاء من كذبها؟ هل تريد أن يجن الرجل على كبره. أكيد أنها تريد الانتقام من رجل لم تحصل عليه .

الكاذبة، رغم أنها شاخت، مازالت محتالة .

أحسست برمادي يغلي ومادت بي الجرة .

كيف لم ألاحظ ذلك التوتر الزائد بين زوجي وقريبته طيلة زواجنا؟ كيف لم أستغرب سلوك زوجي كلما زارتنا وِي جُو. كأن يختفي عن البيت لساعات دون مبرر، ويتحاشى الجلوس معنا. وإن صادف وشاركنا الحديث لا ينظر أبدا ناحيتها؟ كيف لم أشك في التصاقها به في عربة الريكْشو كلما خرجنا في نزهة؟

كان الصمت طويلا كعمر . استطعت أن أتخيل وجه زوجي المحتقن مثل باذنجانة زرقاء، ورأسه المغروس بين كتفيه، وكاهله المقوس تحت ثقل الصدمة .

- ولمَ لم توقفي زواج تاوْ وقوتْشينْ؟

- لم أكن متأكدة تماما، فقد عاشرتكما في نفس الفترة .

ضحكة خافتة :

- خرجت أنت يومها من النافذة، إثر دق على الباب اعتقدته والدي. ودخل هو من الباب. في الحقيقة عقلي كان يقول لي إنه ابن الأمريكي وقلبي كان يفضل أن يكون ابنك أنت. ثم لماذا أفسد شغفا قائما بين شابين ببذرة شك؟ طيلة حياتي، احترمت العشق وقدسته .

- اسمحي لي يا ابنة العم أن أصارحك، لم تكن هناك قدسية فيما كنت تفعلين. لم تختلفي كثيرا عن نساء الماخور .

تغيرت نبرة الصوت وأصبح أكثر هدوء وغنجا :

- هيا أفرد تقطيبة جبينك عزيزي. ولا تكن وقحا معي ونحن في هذه السن. كنت فتاة لعوبًا، نعم، ولم أكن عاهرة . كنا صغارا والله يغفر زلات الصغار .

- طالما تساءلت، لماذا لم ترحلي مع عشيقك الأمريكي؟ كنت استرحتِ وأرحت .

- لم أكن على استعداد لتقبل صفة مواطنة من الدرجة الثانية في أمريكا، وأعيش في غيتو اسمه الحي الصيني. كرامتي لم تطاوعني. حتى ولو خنت التقاليد زمنا، احتفظت بحب الوطن، كان الأمريكي بشكل من الأشكال دخيلا على البلد. ثم كنت سأتسبب لأولادي وأحفادي بالعار والعيش بوعي مشطور .

وبضحكة استهتار أضافت :

- كما كنت آمل أن أستعيدك، حتى بعد أن أعلنت خطوبتك على جْيِنْ مَيْ .

غادر زوجي غرفة المعيشة وهو يجر رجليه بتثاقل، ويكرر :

- لماذا أقحمت الولد في الأمر؟

وساد الصمت .

كنت أعرف بالزواج المرتب بين وِي جُو وأخي زوجي الصغير. كما كنت أعرف بقصة اغتصابها. ما كنت أجهله، هو علاقة الحب التي ربطتها بزوجي منذ كانا صبيين .

صباح الغد أعلنوا موت زوجي في نشرة أخبار الإذاعة المحلية. فقد كان اسما معروفا في الجيش الوطني، وقاد معارك كثيرة. لم يمت في أعنف المعارك، لكنه مات مقهورا في معركة طويلة مع امرأة .

كان جرح الخيانة طريا. ولم أحزن على موت زوجي بما يليق بثلاثين سنة من الزواج، لكنني سامحته. فقد كان عائلتي الوحيدة طيلة تلك السنوات، دعمني واعتنى بي بعد موت والديّ ورحيل قوتْشينْ واختفاء أخي يونغ الذي رجحنا موته أكثر من حياته .

الدار البيضاء.. صيف 1986

بسبب انغلاق البلد على نفسه بعد الحرب. وانشغال الصينيين في ترتيب بيتهم الداخلي، لم تصلني أخبار عن أختي جْيِنْ مَيْ منذ سنوات .

أصبحت لا تغادر أحلامي. في آخر حلم رأيتها تُلملم أقمشة الحرير في حقيبة اللاعودة، وأنا وحدي كنت بجانبها، ألقنها طقوس الموت، وأحثها على الاعتذار لنفسها. كنت أصرخ في أذنها: لا تنسي أن تقبلي يدك وتطلبي الصفح منك .

بينما كانت روحها تصعد أدراج السماء، كانت روحي تسحبها إلى أسفل. بعد شد وجذب، صعدت جْيِنْ مَيْ إلى الأعلى، بينما تدحرج قلبها إلى حضني باكيا .

أيقظني وخز في جانبي الأيسر. أحسست بانقباض في الصدر، وبأنفاسي تتقطع كأن روحا تجاهد لتخرج مني. أحسست خيطا رفيعا ينسل من داخلي. لم أجد تفسيرا لهذا الإحساس، سوى أن توأمي جْيِنْ مَيْ تموت هناك في وطني البعيد .

في الصباح وبعد مغادرة زوجي للبيت. ارتديت جبة من الكتان الأبيض. فتحت الحقيبة القصبية، إرثي الوحيد من زمن بدا بعيدا جدا الآن . أخرجت الصورة اليتيمة لي أنا وجْيِنْ مَيْ. صورة التقطناها في استوديو تصوير

بنانجينغ. كانت الصورة بالأبيض والأسود . أنا أحضنها بذراعي اليمنى وهي تلتصق بي، محدقة في الكاميرا بنظرة خنوع وإذعان ووجهها المشع تحت قَصَّةٍ سوداء .

وضعت الصورة على طاولة بجانب بعض الفواكه والزهور، وأحرقت بخورا مع بعض الأوراق النقدية. جلست على ركبتي ورتلت صلوات ظلت عالقة بالذاكرة، لتنعم روح توأمي بالسلام .

تصاعد الدخان من المبخرة وشكل حمامة بيضاء. انحنت الحمامة البيضاء ونقرت الجانب الأيسر من صدري، نقرات متتالية أحدثت ثقبا ضيقا لا يسع سوى مرور حفنة من الهواء، أفسح المجال لخروج الروح. حلقت روحي بعيدا، عبرت بلدانا وبحارا حتى نهر اليانغتسي، وتتبعته حتى وصلت رافده نهر تشينهواي، عائدة إلى القرية، ثم إلى البيت القديم، ثم إلى الغرفة الصغيرة في الطابق الأعلى، ثم إلى السرير الحجري، وإلى مهدين ملتصقين ببعضهما بقطعة من قصب الخيزران، لتتمكن الأم من هدهدة الرضيعتين معا، لأنهما كانتا تبكيان في نفس الوقت، وتجوعان وتلطخان الحفاظات في نفس الوقت .

عرجت روحي على الفناء ولامست علبة التطريز وكومة قش محروق، حيث فاجأ الأم المخاض ووضعت مولودتيها. داعبت روحي كومة القش وطارت بعيدا صاعدة إلى السماء .

نانجينغ.. خريف 1990

لو كنت على قيد الحياة، لواجهت وِي جُو بالحقيقة التي لم يعرفها زوجي، ولا أفراد العائلتين .

وِي جُو كانت تسكن مدينة شنغهاي مع عائلتها الصغيرة، الفرع الغني من العائلة الكبيرة، حين حاصر اليابانيون المدينة وقتلوا من الجو آلاف البشر، وأمام عتاد حربي متطور وبوارج حربية ضخمة راسية في بحر الصين، تراجع الجيش الصيني. لجأت عائلة وِي جُو، كما المئات من السكان، إلى المنطقة حيث ثكنات عسكرية فرنسية وإنجليزية وأمريكية لا يقصفها اليابانيون حفاظا على تحالفهم ومصالحهم مع هذه الدول .

وِي جُو كانت صبية جميلة تلفت الأنظار. تودد لها جندي أمريكي، ثم استدرجها إلى العنبر، لتجد شخصين آخرين في الانتظار، فرنسي وإنجليزي يسكران بالساكي.
فكانت عملية اغتصاب جماعي .

لا تعرف وِي جُو إن كانت الدماء التي تجري في عروق ابنها أمريكية أو فرنسية أو إنجليزية. والفجيعة أنها لحظة هروبها من المعسكر تعثرت في ذخيرة مهملة وفقدت ساقها في الحادث .

رغم ما يميز وِي جُو من قوة الشخصية، فقد حاولت الانتحار بعد الحادث. استدركت والدتها الأمر، قبل أن

ينتفخ بطنها، ورتبت زواجها من ابن عمها .

تشوّنغ الأخ الأكبر، كان في ساحة المعركة حينذاك. لا أحد عرف القصة من رجال العائلة ولا حتى نسائها، فقد ظلت سرا بين الأم والحماة. حماتي لم تكن بينها وبين كَنَّتها مودة ولا احترام. تتشاجران دائما. الأولى تعتبر الثانية جاحدة، لأن قبولها هذا الزواج، يُلزم الكنة بإبداء الطاعة والمزيد من الامتنان. وِي جُو تعتبر أن زواجها كان صفقة مادية مربحة لعائلة الزوج. في إحدى غضبات حماتي على وِي جُو حكت لي الحكاية بالتفصيل .

وسط ذلك الخلاف العائلي، كنت متعاطفة ومساندة لوِي جُو، كامرأة مظلومة وضحية من ضحايا الحرب .

ماذا كانت ستقول لطفلها حين يسألها عن والده؟ هل كانت ستقول له والدك عدوي وقاتل عائلتي وأنك نطفة كراهية وحقد متبادل؟ أم كانت ستقول له تلك الجملة الجاهزة التي بررت بها معظم الأمهات الصينيات المغتصبات غياب أب «أبوك مات في الحرب»؟ أم تقول له بكل بسلطة «أنت ابن حرب» وتدع لعقله الصغير كل الاحتمالات: ابن جندي مات شهيدا في الحرب، ولد أثناء الحرب، كان جنينا في البطن حين وصل خبر استشهاد الوالد.. الأكيد حين سيكبر الطفل، سيطرح ويزيد في عدد السنوات، ليكتشف أن التواريخ التي أخبرته الأم لم تكن مضبوطة تماما. ثم إن مثل هذه القصص يلزمها

للتصديق صورة رجل بزي عسكري، صورة بالأبيض والأسود .

وحدها وِي جُو تعرف أنها نجت من موت محتوم. فلو تم اغتصابها من جنود يابانيين لكانوا قتلوها بعد حفل الاغتصاب. ومع ذلك ظلت أمام العائلة تلك المرأة الجميلة المغرية والقوية، القادرة بجمالها على التأثير في الرجال .

ما كان أحد ينتبه لأمر ساقها المبتورة وهي جالسة كأميرة. فقد حافظت على ارتداء الفساتين الأنيقة وجوارب النايلون تختارها بلون الرجل الاصطناعية لتبدو ساقا طبيعية. أنفتها أعطتها القوة للاستمرار بتمثيلية أخرجتها والدتها .

غضبتُ لادعاءات وِي جُو وانتفض رمادي في الجرة .. ماذا كان سيكون رد فعلي لو كنت حية؟ هل كنت، حقا، سأواجه تلك الفاجرة؟ هل كنت سأطلب الطلاق من زوجي؟ الاحتمال الأكبر هو أنني سأحتفظ بالحقيقة لنفسي وأخرس، كما أفعل دائما، أحني رأسي حتى تمر العاصفة .

طبيعة الحياة التي خضعت لها منذ سنوات الزواج الأولى، جعلتني امرأة هشة، أفتقد لأبسط القدرات على مواجهة مشكلات الحياة، خصوصا مشكل خيانة الزوج .

هل كان من حقي أن أغضب من حب ظل يحجبني عن زوجي ثلاثة عقود من الزواج؟

أنا الآن في الموت، حيث الوضوح التام للأشياء، والحقيقة دون نفاق، أستطيع أن أخلص إلى أنني كنت جبانة. الجبن الحقيقي ليس هو العجز عن مواجهة الآخرين، بل هو العجز عن مواجهة أنفسنا .

لو كانت لي القدرة على الوقوف أمام المرآة، والتحديق في أعماق ذاتي، بدل البحث عن مبررات خارجية، والتي من أسهلها اتهام القدر، لما كنت عشت كل هذا الألم الصامت. لحظة واحدة كانت ستمكنني من البدء في حياة أكثر إيجابية .

صدقوا الموتى، مصائرنا بأيدينا، فقط يجب أن تكون الدرع الخارجية لشخصيتنا أكثر سمكا. الدرع التي نربيها مع الوقت كطبقة من طبقات الجلد التي تحمي أجسادنا من البرد، من الحر، والميكروبات، هي درع الروح ومهمتها حمايتنا من مؤثرات الخارج السلبية ومن الضياع، بالعودة إلى قوة الروح وسكينة الدواخل، على أساس أن تكون دواخلنا مرتبة .

الدار البيضاء.. خريف 1990

حياتي تحولت إلى انتظار لا ينتهي . انتظار عودة الزوج من العمل. انتظار عودة الأولاد من المدرسة . انتظار زيارتهم الأسبوعية بعد أن كبروا. انتظار أن يتذكر أحد من وطني، أنني كنت موجودة ذات حرب بينهم، ويبعث إليّ برسالة من هناك. انتظار من يخرجني من حفرة الوحدة والضياع .

محمد ظل يرفض رفضا باتا عودتي إلى بلدي، ولو لزيارة قصيرة :

- إذا ذهبت، فاذهبي من دون الأولاد.. لقد اتفقنا منذ الأول ألا عودة للوراء .

وفي لحظات الغضب :

- إذا ذهبت فلا تعودي .

صحيح وعدته يوم زواجنا أن أنسى كل ما ورائي .

أعرف سبب رفضه، كان يعتبر أن عودتي إلى هناك، هي عودة للوراء، لحياتي السابقة التي تقبلها على مضض، ويريد أن ينساها. يخاف أن يعرف أولادي أو أحد من أقاربه ماضيّ، وخصوصا الفترة التي قضيتها في الفيتنام. هذه الفترة التي ظلت تلقي ظلالها على زواجنا

وتسببت في برود تدريجي في علاقتنا. رغم أنني أنا نفسي لم أعد أذكر الكثير منها فقد ركنتها في ركن عميق من الذاكرة ونسيتها.. أنا كذلك كرهت جسدي إلى درجة أن أصابني برود جنسي .

مع السنوات، ساءت حالة محمد النفسية أكثر. يصرخ وهو نائم باستغاثات وتوسلات وأوامر، بخليط من العربية والفرنسية : «قف مكانك.. لا تقتلني.. أنا مسلم مثلك ». بعض الليالي يستيقظ مرعوبا في الليل، يتصبب عرقا . في فصل الشتاء حين يسقط المطر بغزارة وترعد السماء تتلاحق نوباته أكثر. كان يكره فصل الشتاء .

نصحته بزيارة طبيب للأمراض النفسية، لكن، في ذلك الوقت، كان المرض النفسي يعني الجنون وخسارة الوظيفة. كما أن الأولوية كانت للأمراض الجسدية .

قبل موته بشهور، كنا نشاهد فيلما عن حرب العصابات. كان المشهد قتالًا بين أخوين. في حوار بين الممثلين، قال أحدهم للآخر قبل أن يقتله : «انظر إليَّ أخي، حدق في جيدا.. لتقتلني في حياة أخرى » ، أجهش محمد بالبكاء، باح لي ببعض كوابيسه .

حدثني مطولا عن المعارك، وعن شراسة الفيث مِينْ. لكن أصعب ما عاشه، وأصبح يقض مضجعه، حادثتان في معركتين مختلفتين، كان العدو عسكريا من دمه

ودينه، من المغاربة الذين هربوا من الجيش الفرنسي والتحقوا للقتال مع الفيث مينْ .

وجد محمد نفسه وجها لوجه مع جندي مغربي. بدا الجندي مرتبكا وتائها وهو يحاول استعمال البندقية. تردد محمد في إطلاق النار على مواطنه، فحاول التواصل معه في تلك اللحظة الوجيزة، لكن الجندي كان أمازيغيا لا يعرف كلمة من العربية. فجأة، ظهر قائد الكتيبة الفرنسي متسائلا : «ماذا يحدث هنا؟ » في إشارة إلى تردد محمد. ظل الجندي يحدق فيه بهلع ومحمد يصرخ فيه «أغلق عينيك ». لم يكن أمام محمد إلا إطلاق الرصاص. وظلت العينان المفتوحتان المحدقتان في الموت تطاردانه .

«أبواب الله تظل مفتوحة ليل نهار، لكنها تغلق يوم موت قاتل »
قال وهو يجهش بالبكاء .

الحادثة الثانية التي جرحت كبرياءه، وتركت أثرها العميق على نفسيته، كانت أثناء المعركة الأخيرة والحاسمة، معركة ڈيانْ بْيانْ فُو، حين وجد نفسه مرة أخرى يقاتل مغربيا. لكن في هذه المرة، كان المقاتل الآخر في موقع قوة، فكان بإمكانه أن يقتل محمد، لكن العسكري المغربي تردد واكتفى بإطلاق النار على رجله اليسرى، وأخذه أسيرا .

حكى محمد، بمرارة أكبر، قصة أسره وتعرضه لأبشع أنواع التعذيب. بعد فشل محاولات استقطابه من الفيتْمينْ، كجندي مرتزق يحارب في صفوف مستعمره، عومل معاملة شرسة على غير معاملتهم الأسرى الفرنسيين. تعاطف معه أحد المغاربة الذين انضموا إلى الفيتْمينْ، وساعده على الفرار إلى البلد المجاور لاووس. غير أن محاولة الهروب لم تنجح، فقد ضبطته كتيبة من المقاتلين اللاووسيين المتحالفين مع الفيتْمينْ ضد مستعمرهم الفرنسي. أخذ إلى معتقل في لاووس. وأسقطوا عنه صفة أسير حرب، وعومل كالمجرمين. لذلك فقد الجيش الفرنسي أثره، ولم يعد مع الأسرى الذين أفرج عنهم مباشرة بعد معاهدة جنيف .

الدار البيضاء.. صيف 1996

دخل العالم مرحلة هدوء ما بعد العاصفة. الحرب الباردة استلمت خيوط اللعبة السياسية، في انتظار أن تنسى الأجيال التي عاشت الحرب العالمية الثانية، لتقوم حرب عالمية ثالثة. حياتي كذلك دخلت مرحلة هدوء. من مات مات، ومن رحل رحل، والأولاد حلقوا بعيدا عن العش .

صيف يمضي يتلقفه خريف، وخريف يلقي نفسه في عواصف الشتاء، لا شيء تغير سوى تجاعيد على الوجه أصبحت أكثر اتساعا .

انشغلت بمتطلبات الحياة اليومية. لكن الحنين كان يستيقظ بين الفينة والأخرى. يستيقظ برائحة، بصوت، بحلم .

كنت أتمشى في شارع محمد الخامس، حين تصاعدت من إحدى النوافذ موسيقى صينية. امتلأت عيناي بالدموع .

لم يعد حلم العودة يراودني بإلحاحه السابق. وكرغبة دفينة، وجدتني أستمتع وأتفنن في تطريز سفن ومراكب على شالات الحرير. أقص صورها من المجلات لأقدها. بعدها أدمنت عادة تجميع صور المراكب. ووصل اهتمامي إلى البحث في تاريخ أشهر المراكب

التي حملت مستكشفين ومغامرين، لاجئين ومهاجرين ومهجَّرين، بما فيها السفن التي ابتلعها البحر .. مراكب حملت أجناسا مختلفة من أوروبا إلى أمريكا، وأخرى حملت العبيد من أفريقيا إلى العالم الأبيض .

بعد ذلك أصبحت أقتني مجسمات سفن ومراكب مدعية اهتمام حفيدي بها. مع الوقت انتقلت هذه الهواية لأحفادي. تحولت الخزانة الزجاجية وسط البيت إلى ميناء ترسو فيه سفن بتواريخ وأحجام وأشكال مختلفة. سفن لا ترى تلويحاتي ولا تسمع استغاثاتي. هكذا جسدت حلم العودة المستحيلة، لأستنبت في هذه التربة الغريبة جذوري .

في بعض الأوقات، تصر الذكريات على العودة. من الذكريات الجميلة، مشهد ثابت من سايغون. يوم دعاني محمد إلى مقهى دُو بارِي، المشهور، فاتحني بالزواج وقدم لي خاتما من فضة كان يضعه في إصبعه الصغير. رافقني حتى محطة الحافلات أمام كاتدرائية نُوتْرْدامْ. كان اللقاء الأخير مع محمد قبل التحاقه بمعركة دْيَانْ بْيَانْ فُو .

تلك الصورة تبدو لي دائما ثابتة على لحظة العناق. كأن ذلك الرجل وتلك المرأة ما زالا، رغم مرور السنين، هناك أمام المحطة، متعانقين، رأسها مندس بقوة في صدره. هي تبكي وهو يرشح عرقا، فيلصق الشعر النابت في صدره على خدها، تحت النظرة الرخامية لتمثال مريم

العذراء، وكأن ذلك التمثال مازال يحرس كلمات الحب الساخنة. لحد الآن، كلما تذكرت تلك اللحظة، أسمع موسيقى الأرغن القادمة من الكاتدرائية. أتخيل أنني لو عدت الآن إلى ذلك المكان، سأجدنا متعانقين ملتحمين، ننتظر حافلتين مختلفتين ليذهب كل منا في اتجاه مختلف .

لكن الذكريات المؤلمة كانت أكثر إلحاحا، وبغزارة القذائف النارية التي سقطت من سماء حياتي، وبالقدر الذي يغطي تلك الذكرى السعيدة اليتيمة. فأهرب بنظراتي من الأشياء التي تذكرني، كقنينة عطر، أو وردة جافة بين كتاب وحيد بالصينية، أو أسطوانات قديمة لمعزوفات القوتْشينْ، أو ساعة توقفت عن العمل منذ زمن بعيد، أو خاتم كان عربون محبة في الصبا . غير أن تلك الأشياء كلها كانت تطاردني، تجري خلفي إلى المطبخ وبين الغرف. الغرف التي تحوي هي نفسها مفارش وأثاثًا وخزانات تفوح بالذكريات. في الأخير، أجدني قد أنهكت، أحمل حقيبة يدي وأغادر. حين أخرج من الباب تقذفني الذكريات بكل تلك الأشياء، وأحس بكدماتها على ظهري .

عادة أهرب إلى الحدائق العمومية أو إلى محطة القطار المحاذية للميناء. أتأمل من بعيد السفن الراسية، وأتتبع حركة القطارات الذاهبة والعائدة .

محطة القطار كانت تذكرني ببهو البريد المركزي في سايغون، حيث كنت أجلس ساعات في انتظار رسالة من محمد أو من جْيِنْ مَيْ. في الوقت الضائع، كنت أتسلى بتأمل الصور المعلقة على جدران البهو. صور المحطة كانت تشدني إلى الماضي، خصوصا صورة امرأة جالسة على كرسي خشبي طويل في انتظار قطار قادم . كل مرة أنسج لها حكاية تبدأ بانتظار متلهف وتنتهي بالخيبة .

تلك المرأة المنتظرة في الصورة كانت شبيهتي، كأن رساما رسمها من خامة روحي، أو كأنني أنا التي جلست أمام الكاميرا لالتقاط الصورة .

على مشارف السبعين، تحول الانتظار إلى ثقب بكوة ضوء باهتة.. ما عادت تلك اللوحات تحرك فيّ ساكنا، لأنني توقفت أخيرا عن الإيمان بالمعجزات .

هكذا مضت الحياة، لأنه كان لابد أن تمضي، بلا معنى، بلا طعم، بلا هدف، كطريق لابد أن نمشيها للوصول إلى الموت، لأن الانتحار خطيئة وجريمة ضد الأبناء. هل قلت الأبناء؟ لا أحد يكترث من الأولاد .

تخلى محمد عن تعاطي حشيش الكيف. لكن عادة زيارة الحانة في المساء لازمته حتى موته، كما هي عادة شراء الجرائد في الصباح. ظل يتابع الأحداث والحروب الجديدة في العالم. يشرح ويحلل لأصحابه في الحانة

الأحداث السياسية والمعارك. ينتقل من حرب إلى أخرى حتى وفاته .

كنت أتسلم عنه الجرائد بعد انتهائه منها، لأعرف القليل عن وطني، ولأجس نبض العالم. بعد وفاته استلمت عنه عادة شراء الجرائد كل صباح، من نفس الكشك، عند ناصية الدرب. كل مرة أقف أمام البائع الشاب، ألاحظ ابتسامة سخرية على وجهه. مرة، وهو يسلمني الجرائد، سألني باستهزاء: «هل ستنظمين مؤتمرا دوليا، أمي زهرة؟» أجبته: «احْمَدْ الله أَوْلِيدِي، لم تعش الحرب لتهتم بأخبار السلم ».

نانجينغ.. صيف 1966

بعد حوالي ثلاثة عقود، ابتعدت حرب الغرباء. اندملت الجراح تدريجيا .

مطلع الستينيات كان بداية فترة عصيبة عرفتها الصين، لم تنته إلا في الثمانينيات. عرفنا حقبة حرجة وانغلاقًا تامًا. في المقابل عشنا فورة من المشاعر الوطنية الشيوعية، ورغبة قوية في إنقاذ ثلث سكان العالم من الجوع. بالكاد كنا نجد ما نأكله وما نلبسه .

واتخذت الحياة إيقاعَ انضباط صارم، من المعمل إلى البيت ومن البيت إلى المعمل، وحضور التجمعات أيام العطل والأعياد .

ساد الحذر بين الناس، بين الجيران والأصدقاء، وحتى بين أفراد العائلة الواحدة. ولأن تدخل الغرباء في مشاكل الوطن يوسع الخلافات بين المواطنين، فرض انغلاق لغوي واعتمدت اللغة الصينية فقط .

انتشرت المطاعم الجماعية. انتقلنا إلى إجراء آخر لتصريف الحياة اليومية، تحول الراتب إلى كوبونات نقدمها لاقتناء المواد الأساسية، خاصة الأرز. أما اليوان فقد أصبح نادرا . ما كانت قوتشين بشخصيتها المتمردة لتقبل بهذا التحول، الأكيد أنها كانت ستجد صعوبة في التكيف مع الوضع الجديد .

أما نحن النساء فقد عوضنا الألوان الزاهية التي لونت حياتنا السابقة بلباس غامق، قميص بني أو رمادي وسروال واسع أسود في غالب الأحيان. الحلم الذي عشنا قرونا نحلم به، الخروج من البيت، لم يكن سهلا بالنسبة للكثيرات .

إيقاع حياتنا أصبح كآلة نسيج، إن لم نسرع قُطعت أناملنا، الأكل بسرعة، نمشي بسرعة، مقارنة بحياة أمهاتنا وجداتنا، حين كانت النساء يتحلقن في غرفة التطريز لشرب الشاي، أو يجلسن حول الفرن هادئات يطبخن عصيدة الأرز. يتنافسن على صنع كعكة القمر أو حلوى القلقاس، يتبادلن الحديث بينهن والنكات والأسرار بلغة لا نفقهها نحن الصغار . نسترق السمع إلى همساتهن ونحن نشوي ما التقطناه من حبات الكستناء على الفحم .

اختفت تلك الأرواح الهادئة التي كانت تحرس طفولتنا وتلفنا بالغبطة والفرح. أرواح نساء يبدين الفرح بخجل ويتكتمن على الحزن. كقطع الإسفنج يمتصصن الآلام دون أن يظهر ذلك على وجوههن، كن أقدر نساء العالم على الكتمان والصمت. تعاستنا نحن الصينيات كانت بألوان الحرير الذي نرسم عليه ونرتديه في الأفراح. الآن أصبحت أيامنا بلونين فقط، الرمادي أو البني الغامق .

أنا كنت امرأة عادية، لا من اليمين ولا من اليسار . لم أكن أفهم الخلفيات وسياسة العالم. أقرأ الواقع والأحداث بمشاعري وأحاسيسي ورغباتي البسيطة، لهذا لست مؤهلة لإصدار الأحكام. التاريخ كفيل بذلك وله حق المحاكمة. قد أكون أخطأت التأويل، لكنني عرفت الجوع في هذا المخاض العسير .

شيء ما ظل يضيء نفقنا ويقود الإنسان فينا نحو الخلاص من التعصب. فقد ظلت قيم التسامح والمحبة للبوذية والكونفوشيوسية خلفية ثابتة للمواطن للصيني. قيم ستعود تدريجيا مع الابتعاد عن التعصب والانغلاق بداية الثمانينيات .

كان علينا أن نألف حياة عادية بلا حرب، لكن ذلك كان صعبا في سياق تاريخي لا يمكن تفاديه. تناقضات كثيرة ظلت عالقة بين الإخوة قبل الغزو. كان لابد من حسمها .

بعد طرد العدو الياباني طرح السؤال: ماذا سنفعل بلا حرب،
بلا طائرات وقنابل؟ استيقظت شهوة الدم واستُؤنفَ الاقتتال الذي توقف سابقا على السلطة بين الإخوة الأعداء. وعرفت البلاد مناوشات داخلية . أحرقت الكتب وخرقت حرمة المعابد. اختلط الحابل بالنابل، سعار جماعي أصاب الإخوة والرفاق .

أحداث لو نظرنا إليها من منظار تاريخي، نجد أنها لا تختلف عما عرفته الثورات عبر التاريخ، في كل مكان وكل زمان، الثورة تأكل أبناءها .

الدار البيضاء.. خريف 2001

توفي محمد. لم يتسنَّ له أن يقفل القرن العشرين. بموته حُل العهد الذي كان بيننا وعاد إليّ حلم العودة إلى وطني .

أنهيت حربه بإخراج البزَّة العسكرية، الذي أصر على الاحتفاظ بها كل هذه السنوات في الدولاب، مع الحزام الجلدي والبرودكان الثقيل. وضعت الكل في كيس من البلاستيك وسلمته مجانا لبائع جوال . لامني ابني على التفريط في ذكرى والده. أما ابنتي، التي كانت تتمتع بحس تجاري، فقد نبهتني إلى أنني فقدت ثروة صغيرة، وأنه كان بالإمكان بيع البزة العسكرية لصناع السينما، فهي نادرة الآن .

مداومتي على التطريز وبيع المشغولات حافظا على حيويتي وعلاقتي بأصحاب المتاجر المغاربة الذين انسحبوا في السنوات الأخيرة ليحل مكانهم تجار صينيون. أصبح المجمع التجاري دَرْبْ عُمَرْ يحمل اسم «قِيسارِيَّة الشِّينْواَ ».

توافُد التجار الصينيون على مدينة الدار البيضاء نهاية التسعينيات، وتركزهم في سوق دَرْبْ عُمَرْ للبيع بالجملة في وسط المدينة مكنني مصادفةً، قبل وفاة محمد، بمدة، من لقاء قريبة بعيدة تتاجر في الحرير بين

مدينتي ينْشُوان والدار البيضاء، حين انتبهت وهي تحاسب التاجر المغربي إلى نوعية التطريز واختيار الألوان على وشاح عرضته على التاجر. بادرتني بالثناء على عملي، وأكدت للبائع أن هذه النوعية من التطريز تعود إلى قرون سابقة، وتخص منطقة جيانغسو وحدها، وقليل من الحرفيين يتقنونه حاليا. جرى الحديث بيننا ليصل إلى عائلتها التي كانت تسكن قرية جسر تْشو لانْغْ وإلى قرابة بعيدة بيننا. هكذا تعرفت على قريبتي آن آن. كنا نلتقي كلما جاءت للمغرب. كانت أصغر مني بكثير، من مواليد ما بعد الحرب .

بعد انتهاء شهور العدة، راسلت قريبتي، وأبديت لها رغبتي في زيارة نانجينغ والقرية التي ولدت فيها .

بما أن قريبتي آن آن كانت تسكن مقاطعة نينغشيا البعيدة عن مقاطعة جيانغسو حيث تقع مدينة نانجينغ، اقترحت علي أن أبدأ رحلتي من مدينة ينشوان. كانت كثيرة المشاغل وعليها أن ترتب رحلتنا من هناك. والدها كذلك ممن أبعدتهم الحرب عن القرية وسار بعيدًا نحو الغرب حيث تزوج واستقرت عائلته. بدأ بتجارة صغيرة لتصبح شركة العائلة الآن من أهم مصدري الحرير وحجر الجاد وثمار الحضض .

وثائقي الإدارية كانت متناقضة، ما أخر حصولي على جواز السفر. ساعدتني ابنتي على ترتيب الرحلة. واعتذرت عن عدم مرافقتي لأن الرحلة مكلفة .

بدأت رحلتي من الدار البيضاء، وبالمصادفة كانت عبر الخطوط الفرنسية.. أول مرة سأغادر المغرب بعد أربع وأربعين سنة. كنت أرتدي أجمل ثيابي، وأحمل هدايا لأحفاد جْينْ مَيْ. اعتقدت أنهم سيفرحون بعودة الخالة من الغربة، وسيحبونني لأنني توأم جدتهم والفرع الوحيد المتبقي من العائلة. خفق قلبي بشدة وأنا أفكر في القرية والبيت في نانجينغ .

نزلنا مطار شارل دوغول لتغيير الطائرة .

أمام شرطة الحدود كان التفتيش دقيقا والأسئلة كثيرة. خصوصا مع جمع من اللاجئين تقودهم مترجمة إلى قاعة زجاجية جانبية. من خلال الزجاج تأملتهم، نفس الموقف، كما كنت أنا أمس، فالتاريخ يعيد نفسه: أطفال وشيوخ ونساء معظمهن بالنقاب .

تبادل أوطان، أم تبادل مصائر؟

من أين أتوا؟ أية حروب طوحت بهم؟ هل من العراق؟ أم من أفغانستان؟

في طريقي إلى باب الإركاب. شممت رائحة الخبز من محل «بول » ، عادت إليّ ذكرى أول مرة ذقت فيها الباغيت الفرنسي من المخبزة الفرنسية في شارع كانْتِناتْ بسايغون .

اخترت مقعدا قرب الشاحن الكهربائي لأشحن هاتفي بتوصية من ابنتي التي كانت قلقة من رحلتي وأنا في هذه السن، فكانت تهاتفني كل ساعة .

كان الجو رماديًا وباردًا خارج المطار. من خلف الزجاج بدت من بعيد حقول خضراء ذكرتني بحقول البازلاء، وبالبرد الذي كنت أشعر به وقت كانت الحافلة تأخذنا في الصباح الباكر من تجمعات سائ ليفْرائ شوژ لُو لجني المحصول. عبرتني قشعريرة خفيفة وفكرة سوداء .

خمس ساعات في انتظار الطائرة، كانت كافية لاستعادة شريط إقامتنا أنا ومحمد في فرنسا مدة سنة، بين شتاء 1956 وشتاء 1957. تساءلت، هل كانت حياتي ستأخذ منحى آخر لو كنا بقينا في فرنسا؟ هل كانت ستكون أحسن؟ تأملت المصادفات: كيف دخلت المغرب عبر فرنسا، و ها أنا أغادره عبر نفس البلد؟

غفوت .

بعد إقلاع الطائرة المتجهة إلى بكين بدقائق، تدفق شيء من الفرح إلى قلبي لا أدري منبعه.. ربما كان وجه المضيفة الصينية الهادئ والبشوش. ربما فرح العودة .

غيرت لي مضيفة لطيفة مقعدي الذي كان بجوار الحمام. الطائرة ضخمة ومريحة. معظم الركاب أزواج، سياح فرنسيون فوق الستين. تأملتهم بحسرة. لم أكن

أرغب من الحياة إلا في هذه النهاية. شيخان يسندان بعضهما، يجوبان العالم، يتحدثان دون كلام. في هدوء وسلام يمشيان نحو الموت .

هل كان ذلك كثيرًا على الحياة؟

لم أكف عن متابعة زوجين في المقاعد المقابلة. كيف يتهامسان، كيف يمرر لها صينية الطعام وهو يلمس يدها. كيف يمد لها يده وهي تقف لتتمشى في الممر. تخطيا السبعين، لكن حرارة المودة وربما الحب لا تزال بادية في النظرات واللمسات .

تذكرت محمد. الأكيد أنه أحبني. حب أفسدته ذكريات الحرب. أكاد أجزم بأنه لم يلتفت لامرأة أخرى منذ عرفني. لكنه كان بدويا خشنا لا يحسن التعبير عن مشاعره، لأن التعبير عن المشاعر والعواطف من شيم النساء بالنسبة إليه. انتابني إحساس بأنني أخونه بعودتي إلى الصين .

افتقدته لأنه الوحيد من كان يناديني بقوتْشينْ، ويذكرني بأناقة اسمي وسُمُوِّه. لكن الحياة تشبه شجرة مصيرها أن تتعرى في الأخير، تتساقط أوراقها تباعا.. تختلف حيواتنا فقط، في مدى سرعة سقوط الأوراق وفي قدرتنا نحن على إفلات من نحب .

انزويت في مقعدي، نمت ما تبقى من الرحلة .

حلمت بمحمد وهو يجري خلفي في تلك الحقول الخضراء، التي رأيتها من خلال زجاج المطار في شارل دوغول، يلوح لي ويأمرني بالعودة .. وأنا كنت أهرب وأشير إليه بيدي بالرفض وأصرخ: «لابد أن أرى أختي جْيِنْ مَيْ، لا بد أن أرى أختي جْيِنْ مَيْ». لكنه لم يكن يسمعني لبعد المسافة بيننا ...

ساعة قبل النزول، استيقظت الطائرة، تحركت المضيفات. أخذت أدوات النظافة وقلم شفاه أحمر. وسارعت إلى ترتيب هندامي. وضعت قناعا من المساحيق على وجهي، لأخفي تعب السفر. مازحتني المضيفة الفرنسية: «هكذا أحسن سيدتي الجميلة». فأجبتها ضاحكة: «الشيء الوحيد الذي لم تغيره فيَّ الحياة هو الحرص على المظاهر ».

نانجينغ.. خريف 1968

ظهر يونغ فجأة، في المكان غير المناسب والزمان غير المناسب .

أصيب البلد بهلوسة جماعية. تشابكت الأوضاع الأمنية والاجتماعية والسياسية.. لإعادة النظام وهيبة الدولة، وتحاشيا لحرب أهلية، خرج الجيش لإعادة الأمن وبسط النظام. فلجأ الحرس الأحمر إلى أسلوب العصابات، بل طعم عناصره برجالات عصابات المخدرات والمتاجرة بالأسلحة والرقيق الأبيض. هكذا ظهر يونغ، في نانجينغ. لأول مرة منذ سنوات ولآخر مرة، رئيس عصابة لتهريب السلاح. لم يأت لزيارتي، فقط علم زوجي بالأمر من بعض معارفه في الجيش .

من حسن الحظ أن والدي كان قد شبع موتا، كي لا يشهد خيبته، الابن الوحيد، الذين كان يفاخر به همسا بين العائلة والأصدقاء، لم يكن مقاوما للأعداء اليابانيين ولا ثائرا من الثوار. كان مجرما لسنوات وترقى لمنصب رئيس عصابة .

في هذه المرحلة بالذات، كنت قد توقفت فترة عن العمل، بعد إغلاق مصنع الأعضاء البديلة، فلم يعد الطلب عليها كثيرا بعد الحرب . اقتصرت خرجاتي القليلة على تسوق حاجيات البيت، بسبب متاعبي

الصحية، وتحاشيا للطلقات العشوائية، وخضوعا لحظر التجول الذي يبدأ من السادسة مساء .

في إحدى خرجاتي، التقيت بنفس العينين الرماديتين اللامعتين، للممثل المسرحي، أول رجل حرك مشاعري .

كنت أجر رجلي في أحد أزقة معبد كونفوشيوس، بحثا عن محل لبيع الأعشاب الطبية لمرض النقرس الذي نغص علي كهولتي. اختلال ذاكرتي جعلني أضيع طريقي أكثر من مرة. اصطدمت بحشد من الناس، بعض الشبان المتهورين أو من يسمون بعناصر الحرس الأحمر يجرون رجلا وامرأة، مقيدين، على صدر الرجل يافطة كتب عليها: «أنا خائن»، وعلى صدر المرأة مثل تلك اليافطة كتب عليها: «كنت عاهرة». عادة لا أنتبه أو أقف مع الحشود للفرجة. رجلاي تؤلمانني، وفظاعة العنف الممارس في هذه المحاكمات العشوائية لا تحتمل. التقت عيناي بعيني الرجل، عرفته في الحين رغم القناع. كان بطل طفولتي. ممثل شخصية المحظية الحزينة. قد تتغير ملامح الوجه لكنّ العينين لا تتغيران مهما ضاقتا وتجعدتا. كانت الدموع تغسل الألوان، وترسم تجاعيد أخرى على الوجه الذي كان يضيء بياضا ولمعانا في ما مضى. كان يكرر جملا متقطعة:
«لم أكن فنانا
ولا مسرحيا، كنت رجعيا»، وكانت ذراع تحمل شارة

حمراء تضغط على رقبته وتمرغ وجهه في الأرض.
وأصوات تطالبه برفع الصوت وتكرار الاعتراف .

«لم يكن فنا ما كنت أقدمه، كنت بورجوازيا أتعهر». ثم أجهش بالبكاء. واختلط الدمع بالأصباغ .

رجعت إلى البيت حزينة ومحبطة . لم أحزن للجثث التي كانت تتساقط في الشارع باستمرار، كما حزنت لتساقط تلك الدموع الملونة على الأسفلت البارد .

يِنْشوان.. خريف 2001

لم أتصور التقدم الحضاري الذي وصل إليه بلدي، إلا وأنا أنزل في مطار بكين. كان المطار ضخما ومتطورا، ينم عن تقدم اقتصادي كبير. أحسست بفخر لم أخفه وأنا أوجه سائحة فرنسية سألتني عن القطار الرابط بين المحطات .

التهمت اللافتات وأنا أقرأ لغتي الأم، ومشيت بخفة أنستني أنني عجوز في الثمانين من العمر. على أرض الصين عدت قوتْشينْ الصبية المشاكسة والمغامرة .

استقبلتني قريبتي آن آن في مطار ينشوان. وأخذتني لبيتها في الضواحي .

لاحظت دهشتي وأحست فرحتي. بشرتني :

- سترتاحين من السفر بضعة أيام في بيتي. سنتجول في منطقة نينغشيا كلما سمح الوقت والطقس بذلك. ستنسجمين هنا مع قومية «هوي» المسلمة. بعدها سنسافر بالطائرة إلى نانجينغ .

الليالي التي مكثتها في ينشوان، قضيتها في سرد حكايات القرية على قريبتي. ذكرتها بجذورها التي محتها الحرب. عائلتها كانت معروفة أبا عن جد بصناعة القِرَب من جلد الخرفان والخنازير والماعز، قرب

مخصصة لحفظ الزيوت وجلب الماء. حدثتها عن جديها وعماتها وأعمامها الذين ماتوا دفعة واحدة، وهم متحلقون حول الفرن في انتظار وجبة العشاء. عن والدها الذي نجا من الموت بأعجوبة، لأنه كان خارج البيت لجلب الماء، حين سقطت قذيفة على البيت. كان صبيا في السادسة عشرة، حين حمل ما تبقى من أعواد الطعام المحروقة، ونزع عن التنور حلة الطبخ النحاسية، وساح في البلاد .

كنت أسرد الحكايات كأنها حدثت بالأمس القريب. وأنتشي بمخارج الحروف للغتي الصينية .

رفعا للحرج لم أرْوِ لآنْ آنْ حكاية والدها الذي اغتنى من أحذية الموتى، خصوصا من أحذية العسكر. بعد هروبه من القرية وصل إلى مدينة نانجينغ حافي القدمين، وجد فردة حذاء وحيدة واستمر في البحث بين الأنقاض ليجد الثانية لا تزال عالقة في قدم ميت. ففك الرباط وأخذها. وجد أن الموتى لا يحتاجون لأحذية فامتهن البحث عن الأحذية في ساحة المعارك وبيعها أو مقايضتها بالطعام. لكن الأمر أصبح مربحا أكثر حين كان يجد حذاء عسكريا يابانيا ويبيعه للمقاتلين الصنيين. أخذت تجارته منحى آخر حين بدأ يبيع كل ما يجده على جثث القتلى والجرحى من ألبسة عسكرية وبنادق وحلي وطواقم أسنان إذا كان بها أسنان ذهبية. في هذه المرحلة توقف عن طلب المبيت عندنا، كما كان

في أول وصوله إلى نانجينغ. الأكيد أنه توجه إلى الغرب لينتهي إلى منطقة نينغشيا كتاجر كبير للحرير والشاي وثمار الحضض .

كنت أحدثها عن الماضي، وكانت آن آنْ تصحح لي مغالطات كثيرة عن الحاضر، حاضر الصين .

- الإعلام الغربي، أختي الكبيرة، حجب الكثير من الحقائق عما يحدث في الصين من تطور . صحيح أننا عرفنا فترات عصيبة من الانغلاق، كان لابد منها لإعادة البناء. يكفي أن يأكل مليار وثلاثة مائة مليون نسمة، مرة في اليوم، ليكون ذلك معجزة. ثقي بي ستشرق شمس أخرى على العالم من هذا البلد .

في بعض الأيام حين تتفرغ آن آن كانت تأخذني بالسيارة لزيارة معالم ينشوان .

رافقتني يوم الجمعة للصلاة في مسجد عائشة. مسجد له فخامة المساجد الإسلامية العريقة .

في يوم مشمس سألتني إن كنت أريد أن أرى الصين التي في ذاكرتي. فأخذتني إلى قرية تْشينْبَيْبُو الغربية للإنتاج السينمائي. قرية سينمائية شاسعة على عشرات الهكتارات. تكاد تكون متحفا حيا لتاريخ الصين القديمة. القرية كانت فضاء لتصوير أغلب أفلام الفنون الحربية التي غزت العالم. حيث صورت معظم الأفلام

الصينية الكلاسيكية التي بدأت تسوق إلى الغرب
وتصلنا إلى المغرب. كان محمد يبحث عنها في جُوطِيَّة
دَرْبْ غَلَّفْ ويهديني إياها، ليعوضني بها عن وطني،
كفيلم «الذرة الرفيعة الحمراء » المشهور .

نانجينغ.. خريف 1999

أحفادي كبروا. لم تعد الجرة تثير فضولهم. لا شيء يربطني بهذا الجيل من العائلة .

ضجيج الشارع أصبح أكثر حدة. أكاد لا أنام من ضجيج السيارات . في حياتي، كان البيت في أطراف المدينة، يبدو أن البناء توسع وصرنا في وسط نانجينغ. ومع ذلك لم أعد أسمع نداء الباعة المتجولين خصوصا باعة السمك في الصباح، وباعة الخردوات . أجريت تبادلات كثيرة بيني وبينهم، أبادلهم بأشياء لم تعد تستعمل، كملابس الأطفال حين تضيق عنهم، أو حذاء للزوج ما عاد يريح رجليه، مقابل صحون أو كئوس خزفية أو سلة للغسيل . أغلب الأواني في المطبخ كانت من هذه المبادلات. تاؤ زوج ابنتي فتح متجرا في الحي. متجرا كبيرا فيه كل ما تحتاجه العائلة بداية من الخبز حتى البراغي. انتهى زمن الباعة المتجولين .

في يوم اختفى صوت ابنتي قوتْشينْ.. أين هي؟ لم أعد أحس بأنفاسها القريبة مني. افتقدت تلك اللمسة الحنونة ليدها وهي تمسح الغبار عن جرة الخزف، وتطيل في ذلك . لم تتخلَّ عن عادة إحراق البخور لتنعم روحي بالسلام. كانت تحدثني أحيانا بما لا تستطيع أن تخبر به أحدا. كنت أواسيها دون أن

تسمعني، وأدعو الأجداد إلى صلاة جماعية من أجلها ومن أجل الأحفاد .

أين ذهبت ابنتي قوتْشينْ؟ ليس من عادتها أن تغيب طويلا عن البيت. ناديتها بأعلى صوتي. أحسست بذبذبات جسدها في الغرفة الأخرى. بحدس الأم عرفت أنها تتألم. أصخت السمع لوشوشات زوجها وابنتها. كانت همساتهم تنذر بكارثة تنتظر الأسرة .

في اليوم الموالي، استيقظت على حركة غير عادية. ترتيل صلوات، ورائحة بخور لتشييع الأموات .

وضعوا صورتها على رف المدفأة، قرب الجرة، بجانب صورتي وصور، حماتي، وأمي، وزوجي .

ماتت ابنتي قوتْشينْ .

حزنت شهورا. تعمقت وحدتي. إنه ثاني فقد في ثلاث سنوات بعد موت زوجي. عاتبت نفسي لأنني لم أنتبه لسعالها الجاف الذي طال كل الشتاء، ولزيارات الطبيب يون المتكررة .

ورثت عني ابنتي سرطان الرئة .

نانجينغ.. خريف 2001

وصلتُ، أنا وآن آن، إلى مطار نانجينغ في الثامنة ليلا. رجفة في القلب تلتها تنهيدة عميقة. لا أثر للجروح. شعب آخر استيقظ من موته وأخذ طريق الحياة. وطن آخر انبعث من رماد حرب .

التحقنا بفندق غُولْدْستارْ في انتظار الصباح، وانتظار اللقاء المنتظر منذ عقود .

- ستمطر هذا اليوم، لكن الجو سيظل دافئا .

طمأنتني قريبتي ونحن أمام باب الفندق ننتظر التاكسي .

هل هذه نانجينغ التي في الذاكرة؟ المدينة كبيرة. خضراء ونظيفة. والعمارات شاهقة يغلب عليها اللون الرمادي. الشوارع ممرات واسعة بين أشجار الكافور. ومولات كبيرة. المعمار مزيج من الأسلوب الصيني والغربي. لم أتعرف على المدينة إلا حين اقتربنا من تلك البيوت الواطئة بسقوف القرميد الأحمر، وسور مينغ، ومعبد جيمينغ، المطل على بحيرة شيوانْ وُو، وقد جاوزته ناطحات السحاب، لكنه مازال في شموخه يحرس المدينة .

عاد نهر اليانغتسي الكبير، كما كان منذ قرون، مصدر ثروة وبهجة المدينة. عاد كما وصفته قصائد الشعراء، ورسمته الأيادي الناعمة على أقمشة الحرير وورق الخيزران .

حدائق واسعة، وخضرة منتشرة.. الناس يعيشون في طمأنينة، كأنهم ما هرولوا يوما هربًا من الموت، ما جاعوا، ما شردوا، أو عرفوا شظف العيش. على ضفاف النهر جمع من الصبايا يرقصن على إيقاع موسيقى غربية، وغير بعيد عنهن، كهول يمارسون حركات رياضية في هدوء. كأن ما عشناه، منذ ستة عقود، لم يكن سوى حلم .

أين البيت؟

من خلال نافذة التاكسي، وبما يسمح به المطر الخفيف. كانت عيناي تبحثان عن بيت صغير بطابقين وسقف من القرميد الأحمر نصفه مهدم، عن النافذة الوحيدة المطلة على الشارع المترب والمخرم بالقذائف. بيت يتكون من غرفتين بئيستين، غرفة والدي وغرفتي أنا وجُيِنْ مَيْ، التي كنا نستعملها كذلك مطبخا وقاعة طعام. عمدًا لم أحاول ترسيخ تفاصيل ذلك البيت في ذاكرتي. كنت في التاسعة عشرة، شابة عابرة، ترفض كل ذلك البؤس .

سألت آن آن :

- هل من الممكن أن يُقِلّنا التاكسي إلى الجزء الغربي من المدينة؟ ابتسمت :

- نحن في غرب المدينة، والفندق الذي نسكنه هو جزء من الغرب.. لا تبحثي عن البيت القديم، المنطقة كلها سويت بالأرض، أزيلت الأنقاض وجددوا كل شيء .

تمتمتُ بحسرة :

- ألم يبق شيء؟

أكدت آن آن :

- لا شيء .

غصة في الحلق ورغبة في البكاء .

استطردت قريبتي :

- لكن الحي الذي سكنته جُيِنْ مَيْ مع زوجها، مازال قائما ونحن في الطريق إليه .

غصة في القلب .

أخرجت من حقيبة يدي ظرفا مهترئا عليه عنوان جُيِنْ مَيْ. أرته آن آن للسائق للتأكيد. حنى السائق رأسه بالإيجاب .

- نحن على بعد عشر دقائق من الحي .

لم يكن هناك أحد في الشقة التي تقع في الطابق السفلي من بيت يتألف من ثلاثة أدوار. بيت يبدو أنه سيسقط بين الفينة والأخرى. نوافذ الطابق العلوي رقعت بقطع القصدير، وسدت بعض المنافذ بالكرتون. فانوسان من الورق، فقدا لونهما الأحمر، عند المدخل الرئيسي .

الجارة في الطابق الأول أخبرتنا أن الجميع في العمل الآن، ولن يعودوا إلا بعد الظهر. وأنه بإمكاننا الانتظار في الحديقة. كنت أريد أن أسألها عنهم، هل هم إناث أم ذكور، أم إناث وذكور، وكم عددهم؟ لكن السيدة أغلقت باب شقتها بسرعة، وأدارت المفتاح مرتين، ثم حنت رأسها بتحية صغيرة وخرجت إلى الشارع. لم تكن هناك حديقة بل فسحة مهملة بها أعشاب ذابلة ولعب أطفال متناثرة هنا وهناك .

خرجنا إلى الشارع. انضممنا إلى جمع يتحلق حول عربة التُّوفُو، طلبنا طبقين، حلينا بقطع البطيخ الأصفر على العربة المجاورة، ثم جلسنا في الكشك عند ناصية الشارع لاحتساء الشاي. كل شيء له طعم الدهشة .

تحركنا حين هدأ المطر قليلا .

فتحت الباب شابة في الثلاثين. تركتْ آن آن تشرح لها سبب الزيارة، بينما كنت أنا أتفحص المكان بعيني المشتاقتين، وأبحث عن أثر لجْينْ مَيْ، عن رائحة

افتقدتها. لم أشم إلا رائحة السجائر وبقايا قشور الخضر والرطوبة.. بالكاد أفلتت الشابة ابتسامة خفيفة،
وفسحت لنا الطريق للجلوس في غرفة مفتوحة على المطبخ،
لا يفصل بينهما سوى حاجز ورقي برسوم باهتة لأزهار الكرز، اللمسة الأنيقة لأختي جْيِنْ مَيْ .

رغم أن البيت جُدِّد طلاؤُه، فإن التلف يبدو على النوافذ وشقوق الجدران. لم يكن هناك ما يشرح النفس في هذا البيت، سوى أعراش جوافة عجوز تطل من النافذة .

عزمت على أن أعانق الشابة وآخذها في حضني، لكن برودة الاستقبال أوقفتني. لم تكن سوى صديقة ثْيانْ رَانْ، أحد أحفاد جْيِنْ مَيْ الذي ظل يسكن البيت. وهو الآن خارج الصين ولن يعود إلا بعد شهر .

صبت الشابة كأسين من الشاي، كان معدا من قبل،
ودعتنا لاحتساء أكوابنا ريثما تعود .

نزلت إلى القبو، وغابت دقائق لتعود بجرة من الخزف الصيني قرمزية اللون عليها رسوم ذهبية لزهرة اللوتس .

- إنه رماد الجدة .

قالت وهي تعتذر لتنهي الزيارة، فلديها دوام سيبدأ بعد نصف ساعة .

لم تكن هناك فرصة حتى لأسألها عن بقية العائلة. يبدو أن إيقاع الحياة في الصين أصبح أسرع مما تخيلت .

أخيرا حضنت أختي جْيِنْ مَيْ .

لإخماد اللهفة على شيء أبحث عنه، لترميم ما كسرته حرب في داخلي، أخذتني آن آن في المساء، لزيارة معبد كونفوشيوس للترويح عني، بعد ما أصابني من صدمة في الصباح، ولعلي أجد بعض تفاصيل المدينة لأربط الماضي بالحاضر .

ضفاف نهر اليانغتسي مزينة بالفوانيس، ومراكب تشع بالألوان، والرسوم الزاهية، تنزلق بتناغم تحت الجسور المزخرفة. عروض غنائية ومسرحية في كل مكان .

في الفترة التي عشت فيها بالمدينة، كان الحركة قد توقفت تماما، كل شيء كان مطفأ. حتى دكاكين الوجبات الخفيفة وبيع التذكارات، كان أغلبها مغلقًا أو مهملًا .

لم أجدني، ولا وجدت المكان. تغيرت المعالم إلا النهر الداخلي الذي ظل في مكانه نبضا للمدينة، أرسلَ نسمات باردة لتداعب وجهي، وتذكرني بأنني عبرت يوما من هنا .

لم أتحمس كثيرا لعرض قريبتي بجولة على المركب، لأن أحداث الصباح تركت في داخلي حزنا ومرارة. كما

أن طابور السياح المنتظرين على الرصيف كان طويلا .

فضلت أن أتمشى لعلي أتعثر في ذكرى تخصني، تصالحني مع الماضي .

عرفت بابا. باب بيت مغنية الأوبرا الشهيرة دْيانْ شِي . للباب ذكرى راسخة .

جلست على عتبة الباب وحكيت لآن آن قصة علاقتي بالبيت :

حين التحقنا بالمدينة قادمين من الجبل نهاية 1938 ، كانت الحرب قد أخذت منحى آخر، وأصبحت حربا معقلنة، تركت بين الفينة والأخرى انفراجات لخروج السكان للتسوق. في إحدى تلك الانفراجات، وبتهور مني كالعادة، أخذتُ جْيِنْ مَيْ من يدها، وسحنا لاكتشاف المدينة. وقصدي كان البحث عن مكان لتعلم الرقص والغناء .

كنا قد سمعنا الكثير عن مسرحية مروحة زهرة الخوخ الشهيرة، التي تحكي حياة مغنية جميلة من العهد الإمبراطوري مشهورة بالعزف على القوتْشينْ. فكانت حياة هذه الفنانة تداعب مخيلتي في أقصى درجات طموحي المجنون .

قادتنا رجلانا، أنا وجْيِنْ مَيْ، إلى هذا البيت الذي كان مغلقا على أكثر من ثلاثمائة غرفة، وحدائق فسيحة.

حاولنا أن ندخله. في نفس الوقت، مرت كتيبة يابانية تمشط المكان .. نجونا بالاختباء في دكان لبيع السلاحف والديدان الحية. قضينا ليلة رهيبة .

بمرارة ابتسمتُ للذكرى .

- هل تريدين تذوق حساء أرجل الدجاج أو حساء البط؟ سألت قريبتي .

اعتذرت لها بحجة أنني لا أشعر بالجوع. والحقيقة أن معدتي لم تقبل الكثير من الوصفات الصينية كأرجل الدجاج ومعدته وأفخاذ الضفادع المقلية .

السابعة مساء، سقط الظلام، سألت قريبتي إن كنا تأخرنا في العودة إلى الفندق؟ طمأنتني بأن البلد آمن، ومعبد كونفوشيوس منطقة أكثر أمنا، تبيت مستيقظة لأنها مركز سياحي مهم للأجانب وسكان المدينة .

رغم أن حاسة سمعي ضعفت، فقد التقطت أذناي موسيقى لأغنية ليست غريبة عني. أغنية زهرة الياسمين.. تتبعت الأصوات حتى شارع جانبي للمشاة . كان المشهد كلقطة سينمائية من زمن الحرب. شيخ في الثمانينيات، أشعث الشعر، محتقن الوجه، برجل مقطوعة، يجلس على كرسي متحرك مغمض العينين. يبدو بين النوم والسكر. بجانبه شاحنة صغيرة عليها مكبر صوت، يكرر إرسال نفس الأغنية. على سطح

الشاحنة قصاصات جرائد قديمة لزمن الحرب. على الأرض صحن من الألومنيوم وملعقة . صور مختلفة لشاب جميل في العشرينيات بزي عسكري في أماكن مختلفة ومع أناس مختلفين تجمع بينهم البزة العسكرية. صور قديمة لجنود يتكئون على دبابات أو يتمنطقون ببنادق ورشاشات. خمنت أنه جندي سابق يحتج على وضع مُزْرٍ، لكن آن آن صححت لي أنه جندي فخور بصوره مع زعماء سابقين، وبما قدمه للوطن. لا أعرف لماذا ذكرني وجه الشيخ بوجه أخي يونغ، الذي أصبح غائما في ذاكرتي .

كانت أغنية الياسمين تصدح في الليل، فتعيد إليّ صدى لحن بعيد .

وجدت نفسي وسط حشد من الناس، مواطنين وسياح. يسير بي الحشد إلى الأمام كأنني محمولة على سحابة من ذكريات. أناس أعرفهم ولا أعرفهم. علاقتي الوحيدة بهم هي مجموعة أحداث مؤلمة، احتفظت بها في ذاكرتي وهم نسوا. نسوا يوم أشعلوا الأضواء الزاهية الملونة على ضفتي النهر، وأشرعوا الأبواب، أبواب الفرح والغناء. هم المقيمون في المكان نسوا، وأنا البعيدة في قارة أخرى مازلت أذكر .

صورتان عجز عقلي عن الربط بينهما، صورة النهر وحيدا، ظلمة الأزقة، رائحة البارود والجثث المتعفنة. وصورة الأنوار الزاهية، الموسيقى والرقصات الطائرة

وروائح البهارات والزيت المحروق المنبعثة من المطاعم الشعبية. كيف يمكن، وبعد أكثر من ستين سنة، أن أربط بين هذين المشهدين المتناقضين؟ أن أربط بين تناقضات عدة: بين الحرب والسلم؟ بين الفرح والحزن؟ بين الموت والحياة؟ بين الظلمة والنور؟ بين قوتْشينْ سنة 2001 التي أصبحت تحمل اسم زهرة، وقوتْشينْ سنة 1946 ؟ صدمة العودة كانت مزيجا يشبه الضياع. صدمة قاسية على امرأة جاوزت الثمانين من العمر .

- قوتْشينْ !.. قوتْشينْ! هل أنت بخير أختي الكبيرة؟

صرخت آن آن فزعة وهي تسحبني من ذراعي لتبعدني عن طريق عربة الريكشو التي كادت أن تصدمني .

عدت بعيدا إلى الماضي وسهوت .

أخذت مني قنينة الماء، ورشت وجهي، أسندتني وأشارت لتاكسي .

- لقد تعبتِ، لنعد إلى الفندق .

ابتسمت في وجهها :

- نعم لنعد، فأنا أنسى دائما أنني شخت .

في الفندق، امتلأت الغرفة بالجثث، وامتلأ مغطس الحمام بالأشلاء البشرية.. طوال الليل لم تهدأ أصوات

القنابل الانفجارات بخلفية موسيقى أغنية زهرة الياسمين .

حاولت أن أنام بوضع المخدة على أذني. غفوت لأستيقظ على ضجيج الشارع، عطشى، قمت لأشرب فانتبهت إلى أنني نسيت قنينة الماء على السور المحاذي للنهر.. حين رششتُ وجهي بالماء لأستيقظ من هلوستي .

تأملت انعكاس الجرة على مرآة الكومودا أمامي.. أطل علي طيف امرأة في الستين.. طيف أعرفه .

- آه! جْينْ مَيْ. أختي الصغيرة .

نانجينغ.. صيف 1986

لم أعلم بحقيقة مرضي إلا بعد موتي، حين جاء الطبيب يون معالجي لتقديم العزاء . قال مواسيا زوجي :

- كانت امرأة صالحة، صبورة بقدرة كبيرة على تحمل الألم. كان من الأحسن لها أن تموت غافلة عن مرضها .

قاطعه زوجي :

- كنت أفضل لو كان موتها واعيا لتودع أحبتها .

أجاب الطبيب :

- ماذا كان سينفعها لو عرفت أن السرطان قد غزا رئتيها، وأنها تعيش أيامها الأخيرة؟ كان من الأفضل لها أن تعيش الشهور الثلاثة في بيتها وبين أسرتها، بدل أن تقضيها في المستشفى. صدقني، أنا طبيب وأعرف الوقت الذي يقرر فيه الجسد طرد الروح التي تسكنه .

ثم استطرد: «الموت لا يحرر المريض فقط، قد يحرر آخرين ».

كم مرة أفلتني الموت؟

كانت القنابل تمطر على القرية بين ساعة وأخرى. قنابل كفتائل النيران تحرق كل ما تقع عليه. في الكثير من

الأحيان تسقط غير بعيد من البيت. في إحدى الليالي، سقطت قنبلة على حظيرة المواشي. في الصباح وجدنا الخنازير الثلاثة مشوية عن الآخر، كما لو جهزت لوليمة كبيرة. طمرنا كل ذلك تحت الأرض فحتى الكلاب عافت رائحة القنابل .

مرة، مرَّ الموت قريبا مني. خرجت يومها لأجني ما تبقى من ثمار الجوافة في شجرة الحقل، لتصنع أمي منها مربى للصغار. المؤونة لم تعد تكفي، فاقتصر طعام الكبار على عصيدة الأرز، كوجبة واحدة في اليوم. وأنا فوق شجرة الجوافة اشتد هدير القصف فجأة . سقطت قنبلة على الحقل. كان القش يابسا وسريع الاشتعال فطال اللهب فروع الشجرة. حاولت أن أهرب لكن سروالي علق بأحد الأغصان. حاولت تخليصه، وأنا أصرخ مستنجدة دون جدوى، فقد اشتد صوت هدير الطائرات القنابل وهي تنفجر وسط القرية، وعلى المعبد القريب. أمام الموت تنبثق أفكار جريئة، فككت عقدة الحزام وخلعت السروال ثم قفزت. لا أدري كيف عدت إلى البيت. لم أستعد وعيي إلا وأنا أمام باب المطبخ عارية أمام الجميع . ثم سقطت على البلاط الخشبي. في هذا الموقف المحرج، لم تنزعج أمي من هلاكي أكثر مما انزعجت لعريي ومن إتلافي لملابسي. فالثوب أصبح نادرا. عنفتني وضربتني لأنني لم أكن أرتدي تبانا، رغم أنني أكدت لها أن المسألة لم تكن إرادية، لم أعد أملك إلا تبانا واحدة قمت بغسله في الصباح . ذهبت

قوتْشينْ لتبحث عن ثيابي، لم نجد السروال ولا شجرة الجوافة. التهمت النيران كل شيء .

في ذلك اليوم، أخذ الموت ثيابي وأجلني، إلى حين أن وجد الجسد أسباب موته بعد سنوات، بقتل خلاياه بعضها بعضًا .

ليس مهما نوع المرض، أو نتيجة التحليلات، أو رأي الأطباء لتعرف أن موتك قريب . إنه الإحساس بأن الحياة بدأت تُفلتك هو القياس الدقيق للخطوات التي تفصلك عن القبر .

أصبح الزمن بالنسبة لي أكثر قيمة. فقد تغير اتجاه حياتي كليا، أحسست أن أربعًا وعشرين ساعة لم تعد تكفيني. إحساس غامض يلفني ويجعلني أكثر انغلاقا وتقربا من ذاتي. اشتقت لنفسي. عاتبتني لأنني لم أحب نفسي كما يجب. قصرت في حق ذاتي بالاندماج الكلي في حيوات الآخرين، والعطاء باستمرار دون أن أفكر فيما أخذت. بقدر ما نفرت من علاقاتي مع البشر تقوت علاقتي مع السماء. أحملق في المرآة كل صباح فأصاب بالذعر من اختفاء ضوئي. كنت أركز دائما على لمعان عينيّ كمقياس لاستمرار الحياة في داخلي . عناصر تكويني الجسدي كان يغلب عليها الماء، كما كانت تقول جدتي، لكن جسدي بدأ يجف، وأصبح جلدي أكثر خشونة .

سحبتني إلى دواخلي أكثر. ألحت عليّ أسئلة الكينونة، ورعب الاختفاء. ماذا سأترك ورائي بعد الموت؟ وهل سأذكر؟ قد أنمحي كذرة غبار، كورقة خريف. كيف أخلق لي أبدية صغيرة؟ ففكرت في الجرة . وطلبت من زوجي أن أحرق وأن يحفظ رمادي في الجرة .

في مرحلة متقدمة من المرض، اقتصر الطبيب على حقني بالمورفين، لأن الألم أصبح فوق التحمل، والسعال مزق رئتي. في لحظات بين الصحو والغيبوبة تعود الذكريات لتُؤنِسَ وحدتي. أنا محظوظة مقارنةً بنساء العائلة اللواتي كن يفقدن الذاكرة مع التقدم في السن .

قوتْشينْ عادت لأحلامي من جديد بعد سنوات من الغياب. أحسها بجانبي على السرير. أكلمها كلاما يشبه العتاب . أبكي وبأعلى صوتي أنادي قوتْشينْ. تسرع إلي ابنتي :

- هل ناديتني أمي؟

من تحت اللحاف وبلسان أثقلته المسكنات :

- أنادي خالتك، اشتقت إليها كثيرا، أريد أن أراها ولو مرة قبل أن أموت.. قوتْشينْ أختي، وأمي، وشريكتي في حرب لم نخترها ولم نعرف لحد الآن سببا مقنعا لها. حبيبتي .

ناولتني قوتشين حقيبة جلدية. وأخرجت كل ما تبقى من رحلتنا القصيرة أنا وأختي: مناديل طرزناها معا، خيوط حرير ملونة خبأناها في جرابنا المشترك ليلة الهروب من القرية، شريط أحمر لشد الشعر، لا أعرف الآن إن كان يخصني أو يخصها، صورتنا معا، الصورة الأولى والأخيرة، بدهشتنا الأولى أمام الكاميرا، بابتسامتها الماكرة وعيوننا المغمضة من شدة الضوء. قبل سفرها أخذتني إلى محل تصوير حيث التقط لنا المصور صورة بالأبيض والأسود بخلفية سور مينغ . لماذا احتفظت بصورتها في الصندوق، ولم أضعها بجانب صورة حماتي ووالدتي؟ هل خفت أن أضعها بين الأموات؟ رغم أن أخبارها توقفت وبدأ الشك في موتها أكثر من اليقين في الحياة؟

في أيامي الأخيرة، وحين أستيقظ من نوم عميق، من أثر المهدئات، ينتابني الإحساس بأنني أعود من مكان بعيد جدا، أقص ذلك على جارتي فتسألني سؤالا غريبا: هل تشعرين بالألم في مكان معين من جسدك؟ فأجيب بأن الألم في كل الجسم .

- عليك الإنصات إلى جسدك ..

استغربت إلحاحها، يبدو أن الجارة عرفت أنني أرحل تدريجيا. وقصدت تنبيهي لأهمية ما تبقى لي من أيام في الحياة .

قرية جسر ثْشو لانْغْ.. خريف 2001

المسافة التي استغرقت منا في زمن الحرب، أنا وعائلتي، سنة كاملة بين قرية جسر ثْشو لانْغْ ومدينة نانجينغ، قطعتها الحافلة في ساعتين .

قرية جسر ثْشو لانْغْ، مسقط رأسي، كانت المحطة الثانية في رحلة العودة .

حاولت اكتشاف معالم الطريق، لكن المطر الغزير حجب المشاهد، لم تظهر سوى صفوف الأشجار، بين فجوة وأخرى، وألواح التقاط الطاقة الشمسية فوق السطوح .

تساءلت في داخلي، هل حاولت جْيِنْ مَيْ زيارة القرية بعد الحرب؟ لا أظن أنها تغلبت على هواجسها وقامت بالخطوة. جْيِنْ مَيْ ممن تراكمن الرماد فوق النار كي لا تشتعل مرة أخرى .

نبهتني آن آن، ولكي لا أصدم مرة أخرى، إلى أنه من المحتمل أن تكون معالم قرية جسر ثْشو لانْغْ كما عرفتها قد اختفت. مع عملية الحَضْرَنَة وبناء ريف اشتراكي، فقدت معظم القرى طابعها القديم والبسيط .

وقفت بنا الحافلة أمام المدخل. من النصب الحجري الرمادي الذي كتبت عليه بالأحمر «ثْشو لانْغْ ثْشاوْ سْوِنْ» عرفت أنها لم تعد قريتي .

رغم المطر الغزير، فقد كنت أتطلع للسماء، وكأنني أرى السماء التي ولدت تحتها لأول مرة .

زخات مطر قوي تضرب بعنف على صدري، وتغسل صدأ عالقا بالقلب .

لم أجد قريتي التي كانت معروفة بجودة الأرز، وصيد الروبيان، وفيالج الحرير الممتاز. وجدت قرية حديثة عدد سكانها يقارب خمسين عائلة، يعيشون في هدوء وسلام. أغلبهم كهول، فلاحون سابقون تخلوا عن الفلاحة بسبب الزحف الكبير للمعامل والمصانع، فاقتصرت زراعتهم على ما يحتاجونه للاستهلاك المنزلي من سمسم وصويا وذرة حمراء، وبقوليات.. في فترة العطل فقط، تعرف القرية توافد أبنائها ممن يشتغلون أو يدرسون في نانجينغ والضواحي، أو من يهربون من المدن بحثا عن الراحة والاستجمام .

اختفت البيوت الفقيرة والأحواش المبنية بخليط الطين وتبن الأرز. الأزقة المتربة رصت بالأسفلت وفقد الجسر شكله الأصلي، الواضح أنه أعيد ترميمه في وقت قريب .

بعد خطوات من المدخل الرئيسي، دخلنا قاعة واسعة مخصصة لاجتماعات نواب السكان الدورية، وإقامة حفلات الزواج، والألعاب الترفيهية كلعب الشطرنج، خصوصا للشيوخ. حيتنا سيدة في السبعين من العمر، لا

تزال في كامل حيويتها. هي وزوجها أعدا الشاي ثم طلبت منه أن ينادي على السيد خُوا.. والتفتت إليّ موضحة :

- السيد خُوا هو أكبرنا سنا ومن أقدم العائلات .. هو الذي عاش في تلك الحقبة. الأكيد أنه يعرف أسرتك، أما أنا فلن أفيدكم في شيء. أنا عائلتي من قرية أخرى، جاء بي زوجي إلى هنا بعد الحرب بسنوات .

لكن السيد خوا ظل يراوغ، ويبتعد بالحديث عن تلك الفترة الرهيبة من تاريخ القرية. بل ركز حديثه على تاريخ الجسر وعن بطولات الجنرال تشو لانغ كما لو كان يتحدث مع سائحة أجنبية . حتى أنه لم يسأل عن مصير والديّ.. ظل يكرر كلما تكلمنا عن الغزو :

- العساكر اليابانيون كانوا شياطين.. لم يكونوا أسوياء .

خمنت أنه لا يريد أن يتحدث عن مواضيع قد تنتهي بالحديث عن سياسة البلدان وتدبير الحكام، أو أن تشبعه بالتعاليم البوذية وبالمبادئ الكونفوشيوسية ألجم لسانه عن الكلام السيئ. أبدى روحا متسامحة، رغم أنه فقد أغلب عائلته في تلك الحرب .

قريبتي أثارت فضوله بإخباره بمقتل والدي على أيدي العساكر اليابانيين في أحد شوارع نانجينغ .

- والدك كان رجلا مسالما وصالحا، كان يستحق ذرية أحسن .

علق وهو يلمح لأخي يونغ .

ثم ليعتذر عن قسوة كلامه ابتسم وهو يحكي :

- بيتنا كان في الضفة الأخرى من النهر، يونغ الذي يكبرني بسنوات، كان يفرض على من يريد عبور الجسر من الأولاد إتاوة. يستولي على ما بحوزتنا من طعام وحلوى ولعب. مرة أخذ مني خذروفي الملون لكي أتابع طريقي إلى المدرسة. كان شقيا منذ الصغر. لكن، الأكيد أنه انتهى للصواب حين انضم إلى جيش المقاومة، وأن الآلهة غفرت له .

مشينا بين دروب القرية، حتى وصلنا إلى ساحة فارغة تطل على النهر مباشرة. أشار السيد خوا إلى المنازل المحاذية للنهر :

- حين رخصت الدولة بإعادة هيكلة القرية. منعت البناء على النهر مباشرة. البيوت القليلة المحاذية للنهر كلها قديمة .

في الطرف الشرقي من القرية رصت أرض بيتنا والبيوت التي جاورتنا، لتصبح جزءًا من الشارع الرئيسي، الذي يصل حتى الجسر، ويمتد إلى شارع صغير يمر على المعبد، ظل يحتفظ بالاسم الذي أطلقناه

عليه وقت الغزو «ممر اليابانيين»، لأنه كان، حينذاك، المعبر الوحيد لدخول وخروج العسكر .

أشرت إلى درج حجري نازل حتى النهر، وإلى حجر كبير مسطح، حيث كنا نغسل الثياب والألحفة، و شجرة الصفصاف الضخمة التي كانت واقيا من حر الصيف وبرد الشتاء :

- من هنا، كنا ننزل لسقي الماء. كان الحجر المسطح لفرك الثياب. أنا وجْينْ مَيْ كنا نتناوب على صقل الحجر قبل أن نبدأ بعملية الغسيل .

وقفت أمام الصفصافة أبحث بعيني الغائمتين، عن خطوط أفقية حفرناها أنا وجْينْ مَيْ على جذع الشجرة، ونحن نتنافس على من هي الأطول .

كنت الأطول، ومع ذلك كنت أغش وأنزل بسنتيمترات، قبل أن أضع الخط عند رأس جْينْ مَيْ، لأزيد من الفرق الفاصل بين قامتينا .

هللت كطفلة لرؤية شجرة الجنكة الضخمة، أبرز علامة في القرية، وأعلى شجرة في المنطقة، فقد فاق علوها ذات ربيع ثلاثين مترا .
لا تزال ثابتة قرب المعبد. قاومت الحرب والرياح وتقلبات الطقس. كأنني رأيت جدتي تمرر كفها على جذع الشجرة وتمسح وجهها للتبرك. فقد كانت تطلب

مني باستمرار أن أقطع لها بعض الأوراق لتستعملها كمنقوع ضد الوهن والخرف. جدتي، وكذا الرهبان، كانوا يقدسونها لأنها شجرة مباركة .

علق السيد خْوا بإعجاب : «لقد أُحرقت الشجرة أثناء القصف، لم يبق منها سوى جذر تحت التراب، لكن في السنة الموالية عادت إليها الحياة ».

أمام المعبد، سألني السيد خْوا إذا ما كنت أريد أن أصلي. فنظرت إلي قريبتي بنظرة تحفيز لتختبر اتجاهي الديني .

دخلت المعبد. تم تجديده بالكامل، كان أول ما دمره الغزاة، كمخبأ للمقاتلين، وأحرق الكتاب الوحيد لتعاليم بوذا المنسوخ على ورق من لحاء التوت. كان يطلب منا ونحن صغار أن نلمسه بأياد نظيفة للتبرك .

فقد المعبد قدسيته وهيبته، ورائحته الزكية التي كانت من قبل تغطي المكان بغلالة من الغموض. الأكيد أن اصطدام البوذية بالمبادئ الشيوعية كان خلف ذلك .

وضعت زهورا ورقية وأحرقت بخورا. قضيت أكثر من ساعة وأنا على ركبتي. لم أصلِّ، تأملت في سكينة مجرى حياتي كيف جرفتني الأقدار بعيدا وأنا صبية جميلة متمردة نابضة بالحياة، ثم أعادتني امرأة هرمة مستسلمة. امرأة غريبة عن الحياتين .

ركعتْ إلى جانبي آن آن مستغربة، هي تعرف أنني اعتنقت الإسلام منذ سنوات، همستْ في أذنها :

- أختي الصغيرة، كل بيوت العبادة سكينة للأرواح ومكان للصلاة .

ابتسمت لي وغرقت في تلاوة الملاذات الثلاثة «أعوذ ببوذا، بدارما وبسانغا».. ونصوص مقدسة لم أعد أتذكرها أو أفهمها .

تمردي، في صباي، على المبادئ البوذية، لم يمنع تجلي بعض منها في سلوكات رافقتني طيلة حياتي، وظهرت جليا حين تقدم بي العمر . أهمها التأمل. كلما خبا الضجيج من حولي أتأمل ذاتي، خصوصا بعد موت محمد ومغادرة الأولاد للبيت .

آمنت بالحقائق الأربع لبوذا : المعاناة، منبع المعاناة، الخلاص من المعاناة، والطريق الذي يؤدي إلى الخلاص.. لكنني لم أستطع أن أبتعدَ عن الحقيقة الثانية منبع المعاناة والألم، وهي الانسياق نحو الشهوات، المشتل الذي تنبت فيه الجذور الثلاثة للشر: الشهوانية والحقد والوهم .

سيبدو ذلك متناقضا، لكنني خلصت بعد عمر طويل، إلى أن البوذية سلوكات ومبادئ أخلاقية، والإسلام دين وعقيدة.. والإسلام يجمع كل ذلك تحت جناح السلام .

لأن الله محب لجميع مخلوقاته مهما اختلفت المعتقدات. التأمل ساعدني على خلق توازن بين الاثنين، فوجدت خلاصي وسكينتي التي كانت تنقص صباي. وجدت أخيرا القدرة على العفو والمسامحة مسامحة الغزاة اليابانيين .

لم تعد هناك ساحة تتوسط القرية، لكنني رأيت مسرحا ينصب، وممثلين يتبرجون بألوان زاهية، وجْينْ مَيْ تجلس بجانبي في الصفوف الأمامية بضفيرتها، تعدل القصة، وتدلك على حاجبيها، تسترق النظر من خلف الستار وتبتسم للممثل الجميل، قبل أن يضع قناع المحظية. تتابع الغناء بنشوة، تلمع عيناها كلما ارتفع غناء المحظية.. فجأة تسقط قذيفة وسط الساحة، ويهرول المتفرجون للاختباء تحت السقوف الخشبية للدكاكين. ويختفي الممثلون تحت خشبة العرض.. قذيفة أخرى ويتناثر الخشب وأشلاء الأجساد.. يختلط الصراخ بالغناء .

مضيفتنا زوجة السيد خُوا تناديني للغذاء .

نانجينغ.. صيف 1994

لم يتوقف بكاء زوج ابنتي خلال الشهور التي تلت موت قوتْشينْ. أسمع نحيب الزوج المفجوع يتردد بين جنبات الليل الطويل، وأدعو له بالصبر. فقد كانت ابنتي زوجته وحبيبته طيبة وصالحة . وتاوْ كان زوجا شغوفا مخلصا ومتيما. انتابني الخوف من أن يقهره الحزن ويتبعها سريعا إلى الموت. الحب الذي جمع بينهما كان نادرا، لن يتحمل الحياة بعدها. أشفقت عليه فأنا جربت هذا، الفقدان صعب، لكنه يظل من الدروس الإجبارية في الحياة .

ماذا سيحدث لي بعد موت تاوْ؟

هل سيحتفظ الأحفاد بالبيت؟ وماذا سيفعلون بي، أقصد ماذا سيفعلون بالجرة؟

كما خمنت، لم يعش تَاوْ كثيرا بعد وفاة قوتْشينْ، مات في نفس السنة، ووضعت صورته على الرف .

ساد البيت صمت مخيف. أصيخ السمع بتركيز كبير لأعرف ما يحدث في الغرف الأخرى، ما يصلني لا يتعدى همسات خافتة وغير واضحة. فضول الموتى أم حنين للحياة؟ في الموت تنبت لنا أذنان إضافيتان، نعتمد على حاسة السمع، لأن حاسة البصر تصبح معطلة في عتمة الموت. اعتمدت على السمع لأقيس الوقت

والشهور والسنوات والباقي كنت أكمله من مخيلتي. تخيلت حيوات تجري خارج الجرة، خارج البيت، خارج نانجينغ، خارج الصين، خارج القارة الآسيوية.. كلما ذهبت بعيدا في الظلمة، تتسع مخيلتي يوما بعد يوم. تخيلتني فراشة أنبعث من رمادي وأجوب البلدان بحثا عن نصفي الآخر قوتْشينْ.. كلما زادت مخيلتي اتساعا، وابتعدت روحي، أسمع أصواتا لا أعرف وجوهها. هي للعائلة حقا لكنها غريبة عني. ولم أعد أهتم أو بالأحرى لم أعد أفهم، أشياء كثيرة تغيرت، منها لغة التواصل التي اختزلت. الكلمات بترت، ألغيت حروف العطف والجر . كما اختزلت المشاعر والعواطف. أصبح البيت باردا رغم تطور أجهزة التدفئة. لا صوت لأطفال ولا رائحة طبيخ. يبدو أن المقيمين من العائلة لا يجمعهم سوى مفتاح لبيت واحد .

أؤنس وحدتي بالعودة للماضي، أوارب باب الذاكرة لأحداث حرب بعيدة .

قد أكون الشاهدة الوحيدة المتبقية من أسرة طوحت بها الحرب. وبما أنني لم أشارك في حرب أو انتميت لحزب أو فهمت سياسة فأنا شاهدة عمياء .

أستعيد شتاء لم يعرف له ربيع .

تعود ذكرى قديمة، وأنا على مشارف الذبول، لا أعرف إن كانت ذكرياتي أو ذكريات أختي قوتْشينْ .

كان ضباب كثيف يغطي القرية والقلب. ورائحة الموت القوية تفوح من الصدر .

قافلة العساكر تغادر. أين يذهب العساكر حين تنتهي الحرب؟ وماذا ستفعل الخنادق بوحدتها، بحذاء تركه جندي على عجل، في ساق مبتورة؟

الجميع يجرون في اتجاه واحد، نحو الغرب. نتعثر في الجثث وما تساقط من أغصان الشجر .

آه! لو تريثت الحرب قليلا، حتى تنهي الأم حياكة كنزة الصوف للابن الذي لن يعود .. لن تغادر الدجاجة الخم، حتى تفقس بيضاتها وترى كتاكيتها السبع. لن تغادر بيضها، لأنها منشغلة بسؤال وجودي: من سبق إلى الوجود، البيضة أم الدجاجة؟ لن تهرب، لا داعي لتهويل الموت، ما دام هذا السؤال معلقا .

لن يحكي نهر اليانغتسي مأساة القرية للأجيال القادمة، لأن الضباب الكثيف حجب عنه رؤية حجم الدم والدمار. ربما سيذكر جسر تشو لانغ العتيق، الذي خاصر النهر قرونا، القليل مما حدث، فقط لو تخطئه القنابل .

صوت أمي يستعجلني الرحيل، وأنا أبحث عن خُفَّيَّ الجديدين تحت اللحاف المغبر. لن أذهب من دون خفين، أمامي طريق وعرة، عليّ أن أسلكها في الحياة.. أختي قوتشين، مسعورة، تولول وهي تبحث عن مشطها

العاجي بين الأنقاض. لن ترحل من دون مشط، الأنوثة لا تتعارض مع الجثث المنتشرة في ساحة القرية. الأنوثة استمرار للحياة، حين ستنتهي هذه الحرب اللعينة .

والدي يتحسر: لو كان يونغ هنا، لأغلق ما تبقى من البوابة بشجاعة، قبل رحيلنا.. لأخي يونغ جسد قوي وعضلات مفتولة . حين نصل إلى أول معبد، سأصلي من أجله، قبل أن يجد الحطاب جثته مشوهة في الغابة السوداء، حيث يختفي عادة .

أعود ثلاثة أيام قبل الرحيل .

وأنا أحمل دلو الماء، اصطدم بي ابن الجيران لاهثا، أخبرني بأن أولاد الحي وجدوا جثة يونغ في الغابة، وهم يجمعون الرصاصات النحاسية الفارغة لبيعها لحداد القرية، فقد كانت تجارة حرب رابحة للأولاد كما هو جمع الخوذات.. رميت الدلو وجريت لأخبر والدي.. عند دخولي حوش الدار، وجدت عويلا وصراخا.. كانت أمي تضرب قوتشين بعصا الخيزران، تشدها من شعرها وتمرغها في الوحل والروث.. بصمت انسحبت إلى زاوية في المطبخ.. لم أخبر أحدا .

صراخ، استغاثة، هرولة، هروب، جثث، نار، دم، وحشود تغادر القرية نحو المجهول .

متحف «ذاكرة الحرب » ، نانجينغ..
خريف 2001

- يا إلهي، أين كان العالم؟

صرخت سائحة وهي تنهار على مصطبة رخامية خصصت لذوي الحاجات، وللذين تخونهم قواهم أمام مقبرة جماعية حقيقية .

جلست بجانبها، فلا سني ولا حالتي النفسية كانتا تسمحان بجولة كاملة في متحف ذاكرة الحرب، الثقب الأسود في تاريخ البشرية الحديثة. متحف حي، يقع في الجنوب الغربي، قرب المقبرة الجماعية، مقبرة العشرة آلاف جثة. رغم أنني كنت جزءا من المذبحة، لم أتحمل رؤية أدلة مثبتة، عن همجية الإنسانية، من تماثيل وصور وأفلام وثائقية وهياكل عظمية .

في هذا الركن من المدينة فقط، بين جدران بالرمادي والأسود، مازال الماضي موجودا، ماضيَّ أنا، وماضي الوطن. تطلعت إلى الرقم المهول المنقوش فوق المدخل. ثلاثمائة ألف قتيل، بينهم والدي. والدي الرجل البسيط الذي كان في حياته مسالما مهادنا،لا يتكلم إلا نادرا، لا يكاد يُرى، هو الذي يكمل في موته هذا الرقم، بالنسبة لي كما بالنسبة لكل صيني فقد قريبا أو صديقا في هذه الحرب. رقم يتجادل حوله المؤرخون،

ينقصون أو يزيدون، لكن لا أحد يستطيع أن يجادل في أن هذا المكان، كان في يوم ما بركة من الدم، تصب في نهر عظيم له ذاكرة لا تخطئ . لا أحد سيجادلني في أن رأس والدي قطع بالسيف تحت قبعة رثة من الكتان.. هل أحصوه هو كذلك؟ لم أبحث عنه ضمن صور الضحايا لأن رأسه ظل مفقودا، ولا بين الأسماء المحفورة على الجدار في القاعة الأولى، هو لم يكن سوى رجل بسيط، شهيد في ذاكرتي فقط. في صمت القاعة وغبش الضوء، وبين حشد زوار، يشعرون بالتأكيد بالحزن والقرف، أنا وحدي استعدته في داخلي .

أطفال وصبية يلتقطون صورا مع المنحوتات . صبية في السادسة عشرة تلوح بالعلم الصيني، وتلتقط سيلفي أمام منحوتة لأم ميتة وطفلها يرضع من صدرها والثاني يبكي قربها . هل أدركت هذه الصبية الجميلة معنى هذه المنحوتة التي أبكتني؟

الجولة في متحف ذاكرة الحرب فتحت جروحا ظننت أنها برئت .

عند باب الخروج، ولإغلاق الثقب الأسود، صورة حائطية لأزهار الأوركيديا البنفسجية .

أشارت آن آن لنص كتب تحت الصورة، بتوقيع عسكري ياباني :

- من هذه القصة، جاءت فكرة أن تظل زهرة الأوركيديا البنفسجية، رمزا للسلام بين الشعب الصيني والشعب الياباني .

«الجبل الأحمر .. شتاء 1937

نحن الآن في بداية الأسبوع الثاني من شهر فبراير والقتل لم ينته بعد.. تهت عن الفيلق وسحت في الغابة .

من أعلى الجبل بدت قرية جسر ثشو لانْغْ تسبح في الدم، ونهر تشينهواي بلون أحمر .

ربما لم أته، بل هربت من الرعب. رفاقي كانوا يقتلون بوحشية كل حي يدب على الأرض. يحرقون البيوت والحقول. يغتصبون النساء بهمجية غير مفهومة .

أنا طبيب، باحث في الحياة. لم أرفع سيفا أو أصوب بندقية، لم أطلق رصاصة. فقط كنت الطبيب المرافق للعسكر .

حل الظلام ولم أسعَ للعودة، ولا للبحث عن أعضاء الفيلق.. هارب من رفاقي وخائف من أعدائي .

نمت بين الأحراش، وبي خوف من أن يكشفني عسكري ياباني، أو يجدني مقاتل صيني. فالموقع طريق لعبور الفارين من القرية نحو مغارات الجبل .

عند مطلع الفجر، وعلى مرمى البصر، رأيت جسدين ملقيين على التراب. من لباسهما عرفت أنهما متحاربان، واحد صيني والآخر عسكري ياباني.. الصيني رث الثياب، حافي القدمين، والياباني كان في زي العسكر. يبدو أنهما تقاتلا حتى أنهكا. جسست نبضيهما، لا يزالان يتنفسان .

أنا طبيب وعليّ أن أنقذ الاثنين. لكن لا دواء بقي في حقيبتي لأضمد الجروح، وأوقف نَزْفَ الدماء .. في غبش الصبح جلت ببصري، فبدت رقعة الأرض زاهية بلون بنفسجي يلمع تحت ضوء يتسلل من بين أشجار الجنكة الباسقة ... لم أجد ما يوقف نزف الدم غير زهر الأوركيديا البنفسجية . قطفت كومات صغيرة وأغلقت جروح الجسدين العدوين .

فتح العسكري الياباني عينيه بتثاقل وهمس لي: أخي.. إنه صيني، اقتله .

نظر إليّ المقاتل الصيني نظرة خوف، ثم أرخى رأسه على كتفيه مستسلما .

أنا طبيب، ولم أصوب بندقية على أحد، فكيف أزهق روحا أمام بهاء هذه الزهرة ؟

لم يكونا في حاجة لعلاج أو قتل، فقد قضي الأمر .

تركت روحيهما تصعد للسماء، جسدان مخرمان بالجروح، ينامان فوق بساط بنفسجي .

وقتها أحسست بلامبالاة أمام الموت، وانشغلت بتأمل الجنة البنفسجية الجميلة، المنفلتة من جحيم حرب تدور على بعد كيلومترات .

شيء نادر أن تتفتح زهرة في الثلج.. انهمكت في جمع الأزهار ووضعتها في حقيبتي لأرى في المعسكر، فيما بعد، كيف أحفظ بذور هذه النبتة السحرية، زهرة تشبه فراشة بنفسجية، التي لا أعرف اسمها، فهي غير موجودة في اليابان، وخطر لي أن أسميها: أوركيديا فبراير .

سأزرعها في موطني، لتزهر هناك، في فبراير القادم، ستفرش الأرض في بلدتي أبسطة بنفسجية للسلام ..

سلامًا لضحايا الحرب. سلامًا لأوركيديا فبراير ..

طبيب عسكري ياباني »

شعرت بسكينة وامتنان للعسكري المجهول، ليس لأنه فتح باب السلام بين البلدين، بل لاختياره الأوركيديا البنفسجية للاعتذار. الاسم الذي كنا ندلل به أختي جُينْ مَيْ، حين كانت وجنتاها وشفتاها تتدرجان تحت برد فبراير القارس من الأحمر إلى البنفسجي. ويُصبح خداها كزهرتي أوركيديا بنفسجية .

للعودة إلى بكين، نصحتني آن آن بالسفر على متن القطار السريع، لأستمتع بمناظر الطريق .

محطة نانجينغ، محطة شاسعة لها مواصفات مطار كبير، لكنها أكثر تعقيدا بالنسبة لامرأة في سني .

ربتت آن آن على كتفي :

- أمامنا ساعتان قبل انطلاق القطار والوداع، أختي الكبيرة. وقت كافٍ لأدعوك إلى سْتارْباكْ المتخصص في القهوة .

ابتسمت بفرح رغم غمة الوداع. فطيلة الرحلة كنت أفتقد فنجان القهوة. ارتباطنا نحن الصينيين بالشاي وعاداته، جعلنا نهمل تقاليد القهوة. ليس من السهولة أن نجد مقهى متخصصًا في القهوة فقط. إن طلبت قهوة يأتون بها مخلوطة بالحليب .

جلست وكلي انتباه للجرة أكثر من انتباهي لحقيبتي. اتجهت قريبتي لتحجز تذكرة الحافلة التي ستأخذها للمطار، لتلحق بطائرة ينشوان المسائية .

وسط الحشد المنظم للمسافرين عانقت آن آن :

- وداعا أختي الكبيرة. قالت بملامح حزينة .

لوحت لها من خلف الزجاج. استدارت وهي تحمل حقيبتها الصغيرة وتختفي في الزحام. رغم الرماد الذي

كنت أحضنه في الجرة. أحسست أنني أودع جُبِنْ مَيْ.
وتسمرت في مكاني، إلى أن حثني مراقب المحطة على التقدم، ونزول السلالم إلى الرصيف رقم ستة .

لم أر قريبتي آن آن بعدها .

نانجينغ.. ربيع 1998

أصبحت منسية. مضت سنوات لم أسمع أحدا ينطق باسمي. حتى أنني بت أعتقد أن احتفاظهم بالجرة، لم يكن من أجل رمادي بل لقيمتها وزخرفها بماء الذهب . أصبحت من الأنتيكات الثمينة .

بت أخشى أن تروق الجرة لأحدهم فيشتريها من العائلة .

ما الذي جعلني أوصي بحرق جثتي ووضعي في جرة؟

أكيد، كنت أخاف الأماكن المغلقة، ولم أحتمل فكرة أن أسكن قبرا ضيقا، باردا ومظلما تحت التراب. فأردت أن أبقى أمام أبنائي وأحفادي، يتطلعون إلي كل يوم حتى لا أُنسى. لكن كل هذه الدوافع لا تبرر تلك الحماقة .

اليوم تأكدت أن الموت هو ليس تلك الجثة الباردة، أو ذلك الرماد في جرة فاخرة.. الموت أن يلغيك الأحبة، وتموت في ذاكرتهم. يقتلك الأحفاد ويدفنوك في دواخلهم، هذا هو الموت .

وجاء اليوم الذي كنت أخشاه. سمعت أصواتا كثيرة لغرباء، وجلبة في البيت واصطدام أثاث. راعني هذا الضجيج المفاجئ، أجفلت حتى كدت أن أسقط من

فوق الرف الرخامي. هدأت نفسي، ربما يقومون بإصلاحات أو بدهن البيت .

فجأة أنزلتني يدان قويتان من على الرف. خمنت أنهما يدا الدهان. كنت أهتز بعنف، من عدد الأدراج التي أعرف عددها جيدا، والخطو النازل إلى الأسفل، عرفت أنني أتجه نحو القبو .

وضعتني اليدان بين الكراكيب والخردوات، وأغلق الباب .

بعد دقائق، سمعت رجة الباب الخارجي ومفاتيح تدار .

صرخت، ناديت: عودوا لقد نسيتم الجرة .

في هذا اليوم الذي لا أعرف تاريخه، مِت .

مطار بكين.. خريف 2001

الساعات الأربع، التي قضيتها بمطار بكين الدولي، في انتظار طائرة العودة، كانت كافية للوداع .

حين عدت لوطني لم أعد كاملة . لم تبق لي، هنا، حياة لأعود إليها، ولم أجدني في وطني .

لم أكن أتخيل أنني سأعود إلى المغرب بهذه السرعة . وأنني في هذه الرحلة القصيرة قطعت حبل السرة. ربما كان محمد على صواب، حين ردعني مرارا عن العودة إلى الصين، مؤكدا أن وطني، هو حيث يوجد أبنائي .

لكنني عدت بروح أكثر صفاء. وهدأ الضجيج في رأسي. اختفت أصوات الحرب .

أخيرا سمعت - وبكل وضوح - صوتي الداخلي. ذلك الصوت الذي يرافقنا منذ الولادة، ولا نبدأ بسماعه، إلا حين تنضجنا حكمة السنوات. إنه صوتنا نحن .

أستطيع الآن أن أتأمل بوضوح مسار حياتي. كيف هربت من غسل رجلي زوج يعود متعبا من الحقل كل مساء، لأغسل أرجل رجال عائدين من حرب لا تخصني. وكيف حاد حلمي عن هدفه ثلاثة عشر كيلومترا، المسافة الفاصلة بين المغرب وأوروبا.. انحراف بسيط حول الفستان القصير والأنيق إلى جلباب طويل

فضفاض. والعطور الفرنسية إلى بخور شرقية.
والنافورات الرخامية في ساحات باريس، إلى نافورة رياض تتوسط البيت القديم والرطب لعائلة زوجي .

ربما كان اللعب في ساحات الموت، هو الذي أضاعني طريق العودة إلى وطني. ربما أضعت طريق الرجوع يوم لعبت لعبة الإغراء المميتة مع العسكري الياباني .

كل ما هو أساسي في حياتي، تركته ينزلق في الطريق مع التفاصيل الصغيرة، التي كنت أجهل أهميتها في حياتي .

كنت أرغب في مسار الشمس، أن أسافر سفرها اليومي من الشرق إلى الغرب. ظنا مني أن مصب النور هناك، يعد بإشراق جديد للبشرية ولي. تلك الرغبة السرية التي ولدت في دمي وأنا صبية، كان اسمها الغرب.
غربي أنا الذي رسمته سفنا على وشاحي بخيوط الحرير، التي كنت أشبكها عنوة، كي تظل أختي جْيِنْ مَيْ تفك تشابكها وتشابك حياتي .

الغرب ذلك العالم المغري، الذي كان ولا يزال يغري الكثيرات بالعطور والملابس الأنيقة والحرية في ساحات لندن وباريس ومدريد ...

انتهيت إلى غرب بلا حرب، لكن الحرب في داخلي لم تنته .

لو أعرف، فقط، من قهرني بحق، هل هي الحياة؟ أم الحرب؟ أم هما معا؟ الحياة كانت تضعني دائما في المكان الخطأ ومع أناس خطأ، والحرب كانت قدرا يطاردني. ما زلت لحد الآن أحمل بطاقة أرملة عسكري .

مطار شارل دوغول.. خريف 2001

الثامنة صباحا، حطت الطائرة في مطار شارل دوغول. كنت أحضن الجرة. هذه المرة لست وحدي، سترافقني جْيِنْ مَيْ إلى بيتي في الدار البيضاء.. سأضع الجرة على الكومودا الكبيرة لغرفة نومي إلى جانب صورتنا وصورة محمد. لذكرى أختي، سأشتري زهور الأوركيديا كل يوم .

لأول مرة منذ عقود، سأجتمع أنا وأختي جْيِنْ مَيْ تحت سقف واحد. سقف لا تقصفه طائرات أو تسقطه قذائف. سنتهامس بأسرارنا ونضحك كما كنا نفعل ونحن صغيرتان. سأحكي لها صفحات تجهلها من حياتي، وسأجتزئ بعض الصفحات التي دفنتها في عمق الذاكرة. فأختي جْيِنْ مَيْ هشة وحساسة تتأثر بسرعة. كما أنني لا أريد أن تعرف أختي وجه الرذيلة الذي لبسته فترة .

أنا الآن أكثر استعدادا للموت، ولن أموت وحيدة. توأمي ستذكرني بصلوات الأسلاف، وستأخذ بيدي حين تصعد الروح للسماء .

حثني رجل أمن على التحرك، انتبه لخطوي الثقيل، تقدمت مضيفة ورافقتني إلى باب الإركاب .

في هذه الأثناء، كانت الشاشة الكبيرة لقاعة الانتظار، أمام باب الإركاب رقم 31 ، تذيع، على رأس كل ساعة، نشرات خاصة للقناة التليفزيونية فرانس تروا :

الثامنة والنصف: اصطدام طائرة مخطوفة بالبرج الشمالي من المركز التجاري العالمي بنيويورك .

التاسعة صباحا: اصطدام طائرة ثانية بالبرج الجنوبي للمركز. البرجان يحترقان .

التاسعة والنصف: اصطدام طائرة ثالثة بالبنتاغون، أمام ذهول المذيعة والمراسلين .

الساعة العاشرة: الرئيس الأمريكي جورج بوش يعلن أن الحادث هجوم إرهابي .

أيها السادة المشاهدون، صباحكم حرب ..

مانهاتن مشتعلة.. ارتباك وحالة طوارئ في المطار الفرنسي .

سبب آخر لإشعال حروب أخرى في العالم .

الرباط.. شتاء 2014

أغلقتُ كتاب «قوتْشينْ معزوفة حرب منسية» على صفحته الأخيرة. أحسست بانقباض في صدري وبرغبة قوية للبكاء. لم أركنه في المكتبة على رف الكتب المقروءة، كما أفعل، عادة، مع كتاب أنهيته، بل تركته عمدا على الكومودا المجانبة لسريري . أتأمل بين الفينة والأخرى صورة الصبيتين الصينيتين، وأنقاض الحرب والخراب خلفهما. وفي كل مرة، كنت أكتشف تفاصيل جديدة، في صورة من الماضي بالأبيض والأسود، وأصوغها بألوان الحاضر .

واظبت على حرق البخور كل يوم جمعة، بجانب جرة جْينْ مَيْ .

الأموات ليسوا أمواتا تماما، انتظروا قليلا وسيصلكم همسهم .

شكـــر

أشكر وزارة الثقافة في جمهورية الصين الشعبية، ومؤسسة مسرح الفنون، والسيدة تو يا، والسيد يي يو بينغ، وفريق العمل بمدينة ينشوان .

وشكر مخصوص للإعلامية فاطمة رحال .

صدر للكاتبة :

في الشعر :

مساءات : (المغرب 2001).

أرق الملائكة : (المغرب 2002).

شرفة مطفأة : (المغرب 2004).

ليلة سريعة العطب: (لبنان 2007).

خَلْوَةُ الطير : (سوريا 2010).

السابحات في العطش: (المغرب 2015).

قصائد للأطفال والفتيان :

حوريات البحر: بالفرنسية والعربية. رسومات الفنانة الإيطالية . Malavasi Samanta (المغرب 2015).

التسامح بالألوان: بالفرنسية والعربية. رسومات الفنانة الإيطالية . Malavasi Samanta (المغرب 2016).

في الرواية :

ليالي الحرير: عن مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة. الطبعة الأولى، مايو 2013. الطبعة الثانية سبتمبر (مصر 2013).

حفيدات جريتا جاربو: عن الدار المصرية اللبنانية القاهرة. الطبعة الأولى ديسمبر 2015. الطبعة الثانية فبراير 2016. (جائزة كاتب ياسين للرواية. الجزائر 2016).